جني إربنبك

الفجيعة

رواية

ترجمة: نبيل الحفار

مكتبة
Telegram Network

جني إربنبك

الفجيعة

رواية

ترجمها عن الألمانية

نبيل الحفار

alkarmabooks.com
facebook.com/alkarmabooks
twitter.com/alkarmabooks
instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٣
حقوق النشر © دار الكرمة ٢٠٢٣
العنوان الأصلي: Heimsuchung
المؤلفة: Jenny Erpenbeck
Copyright © 2007 by Albrecht Knaus Verlag, a division of Verlagsgruppe Random House GmbH, Munich, Germany
All rights reserved
الحقوق الفكرية للمؤلفة محفوظة
حقوق الترجمة © نبيل الحفار ٢٠١٢، ٢٠٢٣

تتمسك الكرمة بحقوق الملكية الفكرية، فاحترام الملكية الفكرية يدعم الإبداع ويعزز الإنتاج الثقافي.
نشكركم لشرائكم نسخة أصلية من هذا الكتاب، ولامتناعكم عن استخدام أو إعادة طباعة أي جزء منه بأي طريقة من دون الحصول على موافقة خطية من الناشر، لأنكم بذلك تدعمون المؤلفين وتسمحون للكرمة بالاستمرار في نشر الكتب التي تعجبكم.

الفجيعة: رواية / جني إربنبك؛ ترجمها عن الألمانية نبيل الحفار - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٣.
٢٣٢ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789778648096
١- القصص الألمانية.
أ- الحفار، نبيل (مترجم).
ب- العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٦٦٨ / ٢٠٢٣

تصميم الغلاف: أحمد فرج

«مكتبة ♔ النخبة»

١ مدخل
٢ البستاني
٣ مالك الأراضي الكبير وبناته الأربع
٤ البستاني
٥ المهندس المعماري
٦ البستاني
٧ صاحب مصنع القماش
٨ البستاني
٩ زوجة المهندس المعماري
١٠ البستاني
١١ الفتاة
١٢ البستاني
١٣ ضابط في الجيش الأحمر
١٤ البستاني
١٥ الكاتبة
١٦ البستاني
١٧ الزائرة
١٨ البستاني
١٩ المستأجرون من الباطن
٢٠ البستاني
٢١ صديق الطفولة
٢٢ البستاني
٢٣ المالكة الأصلية غير الشرعية
٢٤ خاتمة
٢٥ ترجمات الكرمة

إلى دوريس كابلان.
بما أن اليوم طويل والعالم قديم،
يمكن لكثير من البشر أن يقفوا في مكان واحد،
بعضهم وراء بعض.
ماري في مسرحية «فويتسيك» لجيورج بوشنر

... أتعديني يا غابات شبابي
بالسكينة، ثانية،
عندما أعود؟
فريدريش هولدرلين

عندما ينتهي الإنسان من بناء داره، يأتيه الموت.
مثل عربي

مدخل

قبل نحو أربعة وعشرين ألف سنة تقدم الجليد حتى الكتلة الصخرية الهائلة التي لم يبقَ منها سوى هضبة ناعمة أعلى البيت. بسبب الضغط الهائل الذي مارسه الجليد، تكسرت جذوع أشجار البلوط والصنوبر وأشجار جار الماء وهُرست، وتفجرت أجزاء من الكتلة الصخرية الهائلة وتَشظَّت وسُحقت، وطُردت الأسود والفهود والقطط ذات الأنياب السيفية إلى المناطق الجنوبية. لم يتجاوز الجليد الكتلة الصخرية الهائلة. وشيئًا فشيئًا حل الهدوء، وأخذ الجليد يؤدي عمله: النوم. وفي أثناء آلاف السنوات من تمدد جسم الجليد الهائل والبارد وانتشاره بنسبة سنتيمترات، جلخ تدريجيًّا الحجارة تحته إلى أن استدارت. وفي أثناء السنوات والعقود والقرون الأكثر دفئًا، ذاب سطح الكتلة الجليدية قليلًا، وتسرب إلى مواضع كان الرمل فيها تحت الجليد قابلًا للانجراف بسهولة أسفل الجسم الهائل الثقيل. وحيثما وُجد مرتفع يعوق تقدم الجليد كان يندفع في صورة ماء متسرب من الأسفل منحدرًا إلى سفح الجبل. في السنوات الأشد برودة بقي الجليد في مكانه ببساطة، جاثمًا وثقيلًا. وحيث كان ذوبانه في السنوات الأدفأ يحفر مسيلات في الأرض تحته، كان يضغط في السنوات والعقود والقرون الأبرد بكل طاقته كي يسد مجاري المسيلات.

عندما بدأت ألسنة المجرى الجليدي بالذوبان قبل ثمانية آلاف سنة، ثم مع ارتفاع درجة حرارة الأرض، تخلى المجرى الجليدي عن كل أعضائه الجنوبية، ولم يترك وراءه سوى بعض مخلفاته في أعماق مجاري المسيلات، كجزر جليدية وجليد مهجور، سمي لاحقًا «جليدًا ميتًا».

هذا الجليد المنقطع عن الجسم الذي كان ينتمي إليه، والذي بات رهين مجاري المسيلات، لم يأخذ بالذوبان إلا بعد مدة طويلة، نحو ثلاثة آلاف سنة قبل بدء التقويم المسيحي، متحولًا مجددًا إلى ماء تشرَّبته الأرض، ثم تبخر وعاد ليهطل مطرًا، آخذًا، كماء، بالتحرك دورانيًّا بين السماء والأرض. ولأنه لم يستطع التغلغل عميقًا لكون التربة مشبعة، فقد تجمع الماء فوق الطين الأزرق، وتراكم إلى أن اتصل سطحه عبر الأرض الداكنة، ليظهر مجددًا مالئًا التجويف كبحيرة صافية. والرمل الذي حثَّه الماء من الصخر عندما كان جليدًا انهار هنا وهناك من الجوانب إلى قعر البحيرة، ليشكل في بعض المواضع جبالًا تحت الماء، في حين بقي القعر في مواضع أخرى بعمق التجويف الأصلي. الآن ولمدة من الزمن ستبقى البحيرة وسط هضبة ماركِن موجهة مرآتها نحو السماء، وستبقى ساكنة بين أشجار البلوط والصنوبر وجار الماء التي نمت من جديد. وبعد زمن طويل، عندما سيوجد البشر ذات يوم، ستحصل البحيرة من هؤلاء البشر على اسم: «بحر ماركِن»، ولكن ذات يوم ستتلاشى البحيرة ثانية، لأنها

مثل أي بحيرة أخرى لم تكن سوى حال مؤقتة، فكأي تجويف أرضي لم يوجد هذا المجرى إلا ليُردم بصورة تامة. حتى في الصحاري كان هناك ماء ذات يوم، وحالة التصحر حسب المصطلح العلمي لم تحدث إلا في العصور الحديثة.

البستاني

لا يعرف أحد في القرية من أين أتى. ربما كان موجودًا دائمًا، يساعد الفلاحين في تطعيم أشجار فاكهتهم في الربيع، ويجدد تطعيم الأغصان في مطلع الصيف مراعيًا البراعم المتفتحة، ومنتبهًا للبراعم النائمة على الرغم من اندفاع النسغ الثاني. يقلِّم أغصان الأشجار التي ستخضع إلى التطعيم أو يُجرِّحها حسب الثُّخن، يهيئ الخلطة الضرورية من الراتنج والشمع والتربنتين، ويضمد الجروح بعد ذلك بورق أو لحاء. يعرف جميع مَن في القرية أن الأشجار التي يشرف على تطعيمها بنفسه تمتلك مع استمرار نموها التيجان الأكثر تناسقًا. في الصيف يستدعيه الفلاحون بوصفه حصَّادًا أو لتوضيب الحِزَم، ويستشيرونه عند تجفيف التربة الداكنة في قطع الأرض الواقعة على ضفة البحيرة، وهو يجيد جدل أغصان الشربين الخضراء في ضفائر، يُنزلها إلى العمق المناسب داخل الثقوب المحفورة من أجل رفع المياه، ويساعد أهالي القرية في إصلاح محاريثهم وجراراتهم، ويشاركهم شتاءً في التحطيب ونشر الجذوع بالمنشار. إنه لا يملك أرضًا ولا قطعة من غابة، ويسكن وحيدًا في كوخ صيد مهجور على طرف الغابة، يسكن هناك منذ الأزل، كل مَن في القرية يعرفه، ومع ذلك فإنهم، كبيرهم وصغيرهم، ينادونه «البستاني» وحسب، وكأن لا اسم له سواه.

مالك الأراضي الكبير وبناته الأربع

إذا تزوجت إحداهن، لا يجوز لها أن تخيط ثوب عرسها بنفسها، ولا يجوز أن يُخاط ثوب العرس في منزلها، بل بعيدًا عنه، ولا يجوز في أثناء خياطته أن تنكسر أي إبرة. في أثناء خياطة ثوب العرس لا يجوز أن يُمزَّق قماش الثوب بل أن يُقص. إذا حصل خطأ في التفصيل فلا يجوز استخدام قماش الثوب ثانية، بل يجب شراء قطعة جديدة من القماش نفسه. لا يجوز للعريس أن يهدي عروسه حذاء عرسها، بل عليها شراؤه بنفسها، وتحديدًا من القروش التي ادخرتها على مدى وقت طويل. لا يجوز أن يقام العرس في وقت الحر، أي ليس في أثناء الأيام القائظة، وأيضًا ليس في شهر نيسان (أبريل) متقلب الطقس. لا يجوز أن تمتد أسابيع الإعلان عن العرس حتى أسبوع الآلام قبل عيد الفصح، وعند قيام العرس يجب أن يكون القمر بدرًا، أو هلالًا متقدمًا على الأقل. أفضل الشهور للعرس هو شهر أيار (مايو). قبل بضعة أسابيع من موعد العرس يُطلب تصميم إعلان الزواج ويُعلق في لوحة الإعلانات. تجدل صديقات العروس أكاليل ورد ويُحطن بها لوحة الإعلانات. إذا كانت الفتاة محبوبة في القرية فسيصل عدد الأغصان المجدولة إلى ثلاثة أو أكثر. قبل يوم العرس بأسبوع يبدأ الذبح والخبز، ولكن لا يجوز للعروس بأي حال من الأحوال أن ترى النار متوهجة في الفرن. عصر يوم ما قبل الزفاف يحضر أولاد القرية ويحدثون صخبًا، يرمون أدوات طعام خزفية كي تتكسر في الممر حتى باب الدار، لكنهم لا يرمون زجاجًا، فيحصلون من أم العروس على بعض الحلويات. أما في ليلة ما قبل الزفاف فيُحضر الكبار هداياهم، يَتْلون قصائد ويشاركون في مأدبة ليلة التسريرة. لا يجوز في ليلة التسريرة أن تتوهج الأضواء، فهذا يجلب سوء الطالع. في صبيحة اليوم التالي تكنس العروس كسور الخزف وترميها في حفرة حفرها العريس، ثم تبدأ صديقات العروس بتزيينها، يُلبسنها إكليلًا من الريحان وطرحة. عندما يخرج العروسان من الدار يجدان فتاتين تحملان حبلًا مجدولًا من الورد، ترخيانه، فيتجاوزه العروسان للانطلاق إلى الكنيسة. يحمل الحصانان على الجانب الخارجي من اللجام شريطين، أحمر للحب وأخضر للأمل. وهناك على السوط شريطان مماثلان. عربة العروس مزينة بأوراق شجر الزان وببعض أوراق العرعر أحيانًا. موقع عربة العروس هو الأخير في موكب عربات الضيوف. لا يجوز أن تتوقف ولا أن ترجع. يجب على موكب العروس ما أمكن تجنب المرور أمام المقبرة. لا يجوز لأهل العروس في أثناء حركة الموكب الالتفات إلى الوراء. يجوز للسماء أن

تمطر ولكن لا يجوز لها أن تثلج، إذ كلما كثرت ندف الثلج كثُر الشجار والألم. كما لا يجوز للعروس أن تسقط منديل جيبها عند المذبح، وإلا لغرقت الزيجة بالدموع. على طريق العودة إلى الدار تتقدم عربة العروس الموكب، ويجب أن تسير بسرعة وإلا اتخذت الزيجة مشية السرطان. عندما يطأ العروسان عتبة باب دار الزوجية فيجب أن يخطوَا فوق حديد، إما فأس أو حدوة حصان. حول مأدبة العرس يجلس العروسان في زاوية تسمى «ركن العروسين» الذي لا يجوز أن يغادراه. كرسيَّا العروسين مزينان بأوراق اللبلاب. بعد انتهاء المأدبة يتسلل غلام تحت الطاولة وينتزع من العروس فردة حذاء، تُعرض في المزاد إلى أن يرسو المزاد على العريس حسب الأعراف. يوزع مبلغ المزاد على الطباخات. وعند الثانية عشرة ليلًا تمزق الطرحة في أثناء الغناء، وتوزع مِزَقها على الضيوف كتذكار في طريقهم إلى دُورهم. بعد العرس ينتقل العروسان الطازجان إلى دار الزوجية الجديدة، حيث وضع الأصدقاء الطيبون فوق الفرن علبة فيها خبز وملح وبعض النقود، على أمل ألا يفرغ البيت أبدًا من الزاد والمال. ولا يجوز مس هذه العلبة قبل مرور سنة. إن الكلمتين الأكثر أهمية في الزواج هما: يجوز ويجب، ويجوز ويجب، ويجوز ويجب. أول واجبات الزوجة في الدار الجديدة هو جلب الماء.

لدى العمدة «شولتسِيه» (١) أربع بنات: جريتِه، هِدْفيج، إمَّا، كلارا. عندما يقود عربته ومعه بناته يوم الأحد عبر القرية، فإنه يُلبِس حصانيه جوارب بيضاء. كان والد شولتسِيه عمدة أيضًا، وكذلك جده، ووالد جده، وهكذا دواليك حتى عام ١٦٥٠، حين عيَّن الملك بنفسه والد والد والد والد شولتسِيه عمدة. ولهذا فإن شولتسِيه يلبس أحصنته جوارب بيضاء عندما يقود عربته ومعه بناته يوم الأحد عبر القرية. تجلس جريتِه وهِدْفيج وإمَّا وكلارا في العربة التي يقودها والدهن. يسير الحصانان بخبب خفيف، وعندما تكون الأرض لا تزال مبللة فلن يطول الأمر، حتى محل اللحام، لتكون جوارب الحصانين البيضاء قد تلطخت بالبقع. كل يوم أحد بعد القدَّاس ينزِّه الأب بناته الأربع بالعربة من درب الكنيسة نزولًا باتجاه الطريق العام، مرورًا بمحل اللحام والمدرسة ومصنع القرميد، لينعطف بعده من الطريق العام يسارًا نحو درب الشاطئ باتجاه الشمال حتى قطعة الأرض الواقعة على منتصف ارتفاع جبل الرعاة، التي يدعوها الجميع في القرية «غابة كلارا»، لأنها حصتها من الإرث. هناك يدير الأب العربة، وفي أثناء دورانه تقفز البنات في الصيف بسرعة ليقطفن بعض حبات توت السياج على الجانب الأيمن من الدرب. وما إن يكتمل دوران العربة حتى يفرقع فورَّاك بسوطه ـ وهذا هو اسم أبي البنات الأربع في القرية ـ كما اعتاد في أيام العمل أيضًا عندما يسرع بعربته عبر القرية مناديًا خدمه وخادماته إلى العمل. وحالما يفرقع أبوهن فورَّاك بسوطه تقفز الأخوات الأربع عائدات إلى أمكنتهن على طريق العودة إلى الدار، مرورًا بمصنع القرميد

والمدرسة ومحل اللحام حتى آخر القرية، حيث تقع عزبة كلوتْهوف التي ورثها أبوهن عن أبيه، وهذا عن أبيه، وهكذا دواليك بالتوريث حتى نحو عام ١٦٥٠، حين أقطع الملك عزبة كلوتْهوف لسلف آل فورَّاك الأول، إضافة إلى بعض الحقول التابعة لها.
إذا أرادت صبية عذراء معرفة ما إن كانت ستتزوج قريبًا، فعليها في ليلة رأس السنة أن تقرع باب حظيرة الدجاج، فإن أجابتها دجاجة أولًا فستبقى على حالها، أما إن أجابها الديك فستتحقق أمنيتها. وبإمكانها أن تجبر زوجها المستقبلي على الظهور في ليلة رأس السنة. إذا رغبت الفتاة في أن يكون زوجها بحارًا على السفن النهرية فعليها الجلوس على عربة يد وسرعان ما سيظهر الرجل المنشود. ولكي تتزوج عاملَ بناءٍ فعليها الجلوس على قرميَّة التحطيب، وإن تناولت بيديها بعدئذ كأس بيرة ومسطرين البنَّاء فسيأتيها قريبًا. وإن ابتغت الزواج بمزارع فعليها أن تأخذ بيديها مِحشَّة ومِجرافًا. وتكون أم الفتاة القابلة للزواج مهتمة بجذب الخُطَّاب إلى الدار، وذلك بأن تترك شِباك العناكب في دارها بادية للعيان. أما إن خرَّبتها فسيجذب الآخرون الخُطَّاب إليهم.
عند ولادة كلارا ماتت أم الفتيات الأربع، وليس لدى شولتسِه ابن ذكر. هناك في القرية آل بوذْنر وآل هويسلر واثنان من آل كوسَّات، وبعض الفلاحين، ولكن لا يوجد سوى شولتسِه واحد فقط.
لن تتزوج جريتِه. فبكر الفلاح ساندكِه، خطيبها، كان الوحيد الذي درس الزراعة بين ستة أبناء لأنه سيرث عزبة ساندكِه. ولكن قبل العرس مباشرة، ولدهشته، رفض مالك الأرض أن يسميه وريثًا، وبناءً على ذلك ألغي العرس. أما خطيب جريتِه، وبعد أن استلم أحد الأصهار العزبة فعليًّا في أيلول (سبتمبر)، فقد ركب سفينة شراعية في ميناء بريمن لقاء ٢٨٠ ماركًا، مرت بأنتفرب وساوثهامبتون ومضيق جبل طارق إلى جنوه فبورسعيد، وعبرت قناة السويس والبحر الأحمر حتى عدن ثم كولومبو فأديلايد، ووصلت إلى ملبورن في أستراليا في ١٦/١١/١٨٩٢. بعد الرحلة التي استمرت ستة أسابيع لم يتبقَّ معه سوى ثمانية ماركات وساعة جيب ذهبية، رهنها مقابل عشرين ماركًا. كتب هذا في رسالة من ملبورن إلى خطيبته التي لم تتلقَّ أي جديد منه بعدها. وبهذا ضاعت إلى الأبد حقول آل ساندكِه المحاذية لحقول آل فورَّاك.
ارتبطت هِدْفيج بعلاقة مع عامل يدوي يدرس حبوب عزبة كلوتْهوف صيفًا. عندما علم أبوها بالأمر من الجيران اقتحم الشونة في عز النهار، انتزع المدراس من يد العامل، وطرده من العزبة ملاحقًا إياه بقوله: «سآتي بالبلطة، سأقتلك!»، بقي راكضًا وراءه حتى حافة الغابة. وقد سمعت القرية كلها صياحه، كان صوته جهوريًّا من كثرة إصدار الأوامر، لكنه مستهلك تقريبًا ووقعه كصوت السكران: «سآتي بالبلطة، سأقتلك!». عندما عاد إلى العزبة حبس هِدْفيج بضعة أيام في حجرة تِدخين اللحم في العلِّية، حيث أجهضت

طفلها الذي لم يكن حتى ذلك الوقت أكثر من كتلة صغيرة مدمَّاة.
إمَّا، ثالثة الأخوات عمرًا، كانت تصلح لأن تكون عمدة لو أنها وُلدتْ ذكرًا. إنها تساعد والدها في كل شيء، وتتخذ القرارات في غيابه بشأن مساهمات أهالي القرية، تشغِّل الخدم والخادمات، تراقب التحطيب في الغابة، وتسهر على الحقول والدواب. لم يأتِ أحد على ذكر زواج إمَّا حتى بكلمة، لا في إطار الأسرة ولا في القرية.
وكلارا، أصغر بنات العمدة شولتسِه، سترث غابة جبل الرعاة، التي تحدها البحيرة من الأسفل، والمرج ذو سياجات التوت البري التابعة للعزبة من الأعلى، وتحدها من اليمين أراضي العجوز فارْنَك، ومن اليسار أخيرًا مرج أحد أفراد آل بودْنر. لكن فورَّاك يزعم لنفسه الحق في هذا المرج، مما سبب نزاعات امتدت سنوات بسبب استخدام بودْنر غير الشرعي للمرج. ونظرًا إلى الظروف القائمة يعد والد كلارا الغابة بمنزلة جزيرة لا يمكن أن تضاف إليها أراضٍ أخرى عن طريق الزواج.
عندما يرسُو الصياد بقاربه على شاطئها لا تدري كلارا ما عليها أن تقول. وحتى الصياد الشاب لا يقول شيئًا، يرمي إليها الحبل فحسب، تتلقفه وتربطه حول شجرة من أشجار جار الماء. إنها لمحض مصادفة أنها اليوم في غابتها، فمنذ حادثة هِدْفيج توقف الوالد عن دعوة بناته إلى مشوار العربة. كلارا هنا اليوم وحدها وحافية القدمين، قطفت بعض التوت البري من المرج أعلى الغابة، ثم تمشت نازلة عبر الأحراج والأشجار التي تملكها: بلوط وجار الماء وصنوبر، لتشاهد تلألؤ مياه البحيرة، فالبحيرة لا تُرى من دار العزبة حتى الشتاء عندما تفقد الأشجار أوراقها.
يمد الصياد المجهول يده إليها فتساعده في الترجل من القارب المتأرجح ثم تترك يده. ولكن عندما يمد يده ثانية تفهم أنه يريد أن تقوده. عند منتصف المنحدر، حيث التربة ليست شديدة السواد والعشب أكثر جفافًا، سيوجد لا شك مكان لها وللصياد الذي يقطر الماء من شعره على كتفيه، متابعًا سيلانه على ذراعيه وإلى حيث تشابكت أصابعهما. الآن فقط، وهي تبحث عن مكان لجلوسهما، انتبهت لكثرة الناس المنتشرين في كل مكان من الغابة، فحيثما وُجد مكان جميل للراحة هناك شخص جالس أو واقف. بعضهم مستلقٍ في الظل نائمًا، وبعضهم يؤدي صلاة الغروب، وبعض آخر يستند إلى شجرة يدخن وينفث الدخان في حلقات. ولأن جميع هؤلاء بالغو الهدوء فإنها لم تنتبه لوجودهم سابقًا. في بقعة مشمسة تحت شجرة البلوط الكبيرة ينمو نوع من الحشائش الذي تحبه، جاف وطويل الساق، وحزمة فحزمة. وعندما ركعت هناك وجذبت الصياد إليها، بدأ الآخرون بالتحرك أخيرًا، أخذوا يعيدون إلى السلال الخبز والتفاح والبيض المسلوق، يطوون الأغطية وينهضون بكل هدوء، بينما رمى المستندون إلى الأشجار أعقاب سجائرهم أرضًا وداسوها. وشيئًا فشيئًا أخذ الجميع يلتفتون ليغادِروا صاعدين باتجاه أعلى المنحدر، من دون

أن يقولوا كلمة لكلارا وصيادها أو يلقوا التحية. وضع الصياد رأسه في حضن أصغر بنات شولتسِه التي ما زالت عازبة حتى الآن، فأخذت تجفف بتنورتها شعره المبلول. وراء شجرة البلوط، أي وراء ظهرها مباشرة، نهض الآن شابان آخران صامتان من زوَّار الغابة وغادرا فورًا، ولم يكونا قد لفتا نظرها سابقًا.

حمراء هي الولادة،/ خضراء هي الحياة،/ أبيض هو الموت.

أعرف حيوانًا صغيرًا،/ يسمى «أدب اللياقة»./ «أدب اللياقة» اسم الحيوان الصغير./ يرتدي العظم على اللحم.

في قبونا يستلقي رجل،/ يرتدي مائة سترة.

في عليتنا ثمة ما يدب،/ لا يمشي ولا يخب.

يرميه المرء على السطح أبيض،/ يعود ويسقط أصفر.

في حديقتنا حصان أبيض،/ يرفع ذيله إلى السماء.

ثمة ملكة شربت الشاي/ عندها سبح ثلاثة غزلان/ فوق البحيرة./ ما كان اسم الملكة؟

أنا الجندي المسكين يجب أن أقف حارسًا،/ لا أملك ساقين ويجب أن أمشي،/ لا أملك يدين ويجب أن أضرب/ وأن أقول الحقيقة لجميع الناس.

ثقب إلى جانب ثقب/ يحقق مزيدًا من التماسك.

في البداية لم تلحظ الأخوات شيئًا سوى أن كلارا قد صارت أحيانًا تحييهن بلباقة زائدة صباحًا، وتستفسر عن صحتهن كأنهن غريبات، أو كأنهن لم يلتقين منذ مدة طويلة. وفي أيام أخرى عندما تبادرها الأخوات بـ: «صباحًا سعيدًا» تلتفت عنهن. الأمر الثاني الذي لفت نظر الأخوات وأهالي القرية أيضًا، أن كلارا تحمل الدلو الذي تُجمع فيه النفايات للخنازير وتغادر العزبة بدلًا من أن تفرغه في الإسطبل. فتعبر القرية حاملة الدلو مرورًا بمحل اللحام والمدرسة، ثم تنعطف يسارًا بعد مصنع القرميد نحو درب الشاطئ. أخبر العجوز فارْنَك، الذي تقع أرضه على يسار غابة كلارا، أباها فورًّاك أن كلارا لا تفرغ دلوها إلا هناك، في مكان ما بين الأدغال، ثم تجلس على الحشيش مستندة إلى جذع شجرة بلوط رافعة قدميها على الدلو المقلوب، وتتحادث مع الهواء أو تصمت. وبعد أن منعها أبوها من مغادرة العزبة، بدأت تختبئ في كلوثْهوف، فتجلس وراء الأجمات والشجر في الحديقة، أو تحت ألواح خشبية مستندة إلى جدار ما، أو في براميل وصناديق. فعلى الأخوات والخدم أن يتوقعوا العثور على كلارا في أي مكان من العزبة. وغالبًا ما صارت تُسمع من أحد المخابئ وهي تُعوِّل وتتشاجر، وإذا سُحبت إلى خارج المخبأ تنقلب دائمًا إلى إنسان هادئ وودود. عندما فتحت جريتِه مرة باب حجرة الأدوات لتأخذ مكنسة، وجدت كلارا واقفة في الحجرة الضيقة تبتسم لها بهدوء، وكأنها كانت تنتظرها منذ مدة طويلة. وفي مرة أخرى عند تناول طعام الغداء غمست يدها في قِدر العصيدة الساخنة، بحضور الجميع، وأخذتِ تدهن بها محيط فمها،

وكأنها عمدًا لا تريد العثور على فمها، وكانت في أثناء ذلك مبتسمة راضية. وللحظة ساد طاولة آل شولتسِه سكون ثقيل. ولمدة طويلة صارت غالبية الخدم ترفض العمل عند فورَّاك القوي، إذ بات الأمر يتطلب كثيرًا ليتسلح المرء ضد هجوم محتمل من واحدة خرجت من عالم أدب اللياقة. وضعت الأخوات جميع السكاكين المدببة والحادة في دُرج قابل للقفل، ووضع الخدم فؤوسهم فوق الخزانة في ردهة البوابة، حيث لا يمكن لامرأة من دون سلم أن تصل إليها. وفي غرفة كلارا فك الوالد وسحب جميع براغي قبضات النوافذ، والقبضة الداخلية لباب الغرفة، وكان يغلق الباب ليلًا بالقفل بيديه من الخارج. كانت كلارا، ابنة شولتسِه، أحيانًا تقلب القصرية رأسًا على عقب وتستخدمها كطبل.

ها هو مفتاح الحديقة،/ الذي تنتظره فتيات ثلاث./ كان اسم الفتاة الأولى بينكا./ واسم الثانية بيبلدِبينكا./ واسم الثالثة تسيكْتسِنْساك نوبل دِه/ بوبل دِه بينكا./ تناولت بينكا حجرًا/ ورمت به بيبلدِبينكا/ على ساقها./ عندها أخذت تسيك، تست، تساك،/ نوبل ده بوبل ده بيبل ده بينكا تبكي بمرارة.

ولم يحدث شيء بعد ذلك سوى أن جريتِه وهِدْفيج وإمَّا وكلارا أيضًا قد كبرن وصار والدهن عجوزًا. لم يحدث ثمة شيء سوى أن غصنًا من شجرة البلوط العجوز في غابة كلارا قد انكسر وسقط على الحشائش وتعفن. وقد اعتاد أهالي القرية رؤية العجوز الشمطاء ـ هكذا بات اسم كلارا بين أهالي القرية ـ وهي تعرج أحيانًا عبر القرية بفردتَي حذاءين مختلفين أو حتى بالجوارب فقط، فتمر بمحل اللحام والمدرسة حتى تصل إلى مصنع القرميد ولا تتجاوزه. وإن سألها أحدهم: «إلى أين؟»، تجيب: «لا أعرف».

في القفَّاز الماضي/ فقدت خريفي./ وجدت ثلاثة أيام،/ قبل أن أبحث عنه./ مررت بحديقة،/ كان يقف فيها رجل./ إلى الرجل جلست ثلاث طاولات./ فرفعت يومي عن رأسي/ وقلت قبعتكم سعيدة أيها السادة./ فأخذ السادة بالضحك،/ حتى انبطنت فجورهم.

الثلث الأول من غابة كلارا باعه العجوز فورَّاك لتاجر من فرانكفورت على نهر الأودَر يستورد البن والشاي، وباع الثلث الثاني لصاحب مصنع قماش من جوبن، ذكر اسم ابنه في عقد الشراء لضمان حصته من الإرث، والثلث الثالث والأخير الذي تنتصب فيه شجرة البلوط الكبيرة، باعه فورَّاك لمهندس معماري من برلين كان قد اكتشف هذا المنحدر المغطى بالأشجار والأجمات في أثناء نزهة بالقارب البخاري، فأراد أن يبني هناك بيتًا صيفيًّا له ولخطيبته. بدأ شولتسِه مباحثاته حول كذا وكذا مترًا مربعًا مع مستورد البن والشاي أولًا، ثم مع صناعي الأقمشة، وأخيرًا مع المهندس المعماري. ولأول مرة في حياته يستخدم مقياس المتر المربع بدلًا من الهكتار، ولأول مرة في حياته يستخدم مصطلح قطعة أرض. طوال مئات السنوات كان اسم غابة كلارا المحْطَبة، فكل ثلاثين سنة كانت تقطع جميع الأشجار حول البلوطة الكبيرة، ثم تُرعى

لتنمو من جديد. أما الآن فعلى كثير من الأشجار أن تبقى على حالها وإلى الأبد، حسب قول خطيبة المهندس المعماري: «من أجل ظلالها». وفيما يساوم الأب حول سعر الجزء الثالث، تعرج كلارا، العجوز الشمطاء على لسان الجميع، عبر القرية كعادتها، فردة حذاء بهذه القدم وجورب بتلك، تعرج مرورًا بمحل اللحام ثم المدرسة ثم مصنع القرميد، لتعود من ثَمَّ على الطريق نفسه. مع حلول الظلمة هطل الثلج للمرة الأولى. يوقِّع العجوز فورَّاك بوصفه بائعًا لقطعة الأرض الثالثة على جبل الرعاة باسم ابنته فاقدة الأهلية القانونية، وكمالكة جديدة بالنيابة عن المهندس المعماري وقعت خطيبته الشابة.

في صباح اليوم التالي اكتشفت إمَّا آثار كلارا على الثلج الطازج، ممتدة عبر شاطئ السباحة العام بخط مستقيم إلى داخل المياه الرمادية. وكانت الآثار متناوبة دائمًا بين الحذاء تارة والجورب تارة أخرى، الحذاء تارة والجورب تارة أخرى. وبعد مدة قصيرة عُثر على الجثة على شاطئ مصنع القرميد عند الجذور العارية لشجرة صنوبر عجوز. رفض الكاهن أن يقيم للمنتحرة طقوس دفن مسيحية، إلا أن شولتسِه، الذي بات قائد الفلاحين في المنطقة على الرغم من تقدمه في السن، عارض ذلك بحزم.

في الدار التي تقع فيها حادثة موت تُوقف الساعة فورًا، وتغطى المرآة لتجنب رؤية ميتين معًا، وتفتح النوافذ العليا. وفي حال عدم وجود فتحة في السقف تُرفع إحدى قطع القرميد لتسهيل خروج الروح. يُغسل الميت وتُبدل ثيابه، فيحصل الذكر على بدلة سوداء والأنثى على ثوب أسود. يُلبس الميت حذاء. العذراء تُدفن بحلي العروس وثوبها الأبيض وإكليل الريحان والطرحة. يُسجى الميت على قش. توضع على وجهه كمادات مغمسة بالكونياك أو بالخل. يوضع على الجسد نبات القرَّاص لتجنب إصابته بالزرقة. إذا كانت الجثة لرجل فتوضع على جبينها بلطتان، في حين توضع على جسد المرأة بلطة واحدة قبضتها باتجاه القدمين. وتستبعد هذه البلطات عند إغلاق التابوت. يدفن وعاء ماء الجثة تحت مزراب، والقش الذي سجي عليه الميت، إضافة إلى ثيابه القديمة، يدفن أو يحرق. تُعلم الحيوانات في الإسطبل والأشجار في البستان بالوفاة بالقول: «لقد تُوفي سيدكم». وقبل أن يتجاوز التابوت عتبة الدار يُنزل على الأرض ثلاث مرات. ولكي يُسد الطريق على عودة الروح تُغلق جميع النوافذ والأبواب فور تجاوز التابوت عتبة الدار. ثم يسكب الماء على الأرض وتشطف الغرف بالمكنسة. والكراسي التي رُفع عليها التابوت تُقلب وتوضع على الأرض. ولمنع أي احتمال عودة، مهما كانت، يُسكب طشت ماء وراء موكب الجنازة، مثلما يفعل الناس عقب مغادرة الطبيب ومصلح سقف الدار.

البستاني

عندما بُنيت أولى دُور الاستجمام على شاطئ البحيرة، وكان معظمها مغطى بالقصب، قدَّم البستاني مساعدته حالما تجمدت البحيرة بقص القصب للسطوح، وقد أبدى هنا أيضًا مهارة استثنائية، إذ كانت سيقان القصب المتجمدة تقفز أمامه كالزجاج. كان حاذقًا في استخدام لوح إزالة العيدان، حتى كاد عامل تغطية السطوح لا يصدق أن البستاني لم يشارك قَطُّ في حصاد القصب. بعد قص القصب كان يضعه على ركبته اليسرى، ويضرب العيدان بقوة شديدة من دون كلل، وسرعان ما تتساقط القطع القصيرة وبقايا الأعشاب على الأرض، أما الحزم النظيفة فيرتبها إلى جانبه.
البستاني قليل الكلام، ولا يبدي أي رأي على الإطلاق بالأحداث التي تقع في القرية، سواء بغرق أحدهم في البحيرة، أو بإزاحة أحد أفراد آل بوذْنر حجر الحدود خفية، أو بهزْم شملينج للملاكم الأمريكي لويس بالضربة القاضية في الجولة الثانية عشرة. قال عامل تغطية السطوح من على كرسيه على السطح للبستاني الذي يناوله حزم القصب من الأسفل:
ـ يا رجل، جارنا شملينج ضد قاذف القنابل الأسمر، كان الأمر هائلًا، أم أنك لا تملك راديو؟
هز البستاني رأسه نفيًا. والبيت الذي يجلس العامل الآن على سطحه هو بيت شملينج. عند بداية اشتراكهما في العمل قال العامل للبستاني:
ـ لقد غطيت سطح بيت توراك أيضًا.
ربما قال ذلك ليؤثر في البستاني المعروف بصمته، وليحثه على الكلام. ربما لم يكن يعرف البستاني مَن يكون توراك، فهز رأسه على كل حال وصمت.
بعض أهالي القرية لا يطمئنون للبستاني بسبب صمته هذا، فيصفونه بالجفاء ويصفون نظرته بالبرود، ويتكهنون بمسحة من الجنون وراء جبهته العالية، في حين يرى آخرون أنه لا يتحدث مع الناس إلا فيما هو بالغ الضرورة، أما عندما يكون في بستان أو حقل، حسبما رأوه بأعينهم، فإن شفتيه لا تهدآن في أثناء النكش أو الحفر أو العزق أو التقليم أو السقي، فهو يفضل الدردشة مع النبات الأخضر. لا يسمح البستاني لأحد بالدخول إلى كوخه، والأطفال الذين يسترقون النظر عبر النافذة في أثناء غيابه لا يرون سوى طاولة وكرسي وسرير وبعض الثياب المرمية على مشجب. هذا يعني أن الدار تصمت أيضًا مثل صاحبها. وكما في حالات الصمت كافة، إما أن يكون وراء الصمت سر أو خواء تام، بكل بساطة.
كان سطح البيت الصيفي الذي يبنيه المهندس المعماري البرليني له ولزوجته قد شارف على الانتهاء، وفي أثناء الاستراحة الأخيرة لعامل السطح

والبستاني، قبل ترتيب حزم القصب الأخيرة على السطح، انضم إليهما سيد الدار المستقبلي، وسأل القرويين عما إذا كانا يعرفان أحدًا ما من المنطقة يمكن أن يساعده في تحويل الغابة إلى بستان. وكما هو متوقع بداهة رشح عامل السطح البستاني الجالس إلى جانبه والذي بقي صامتًا، ثم التفت نحو المهندس المعماري وهز رأسه موافقًا.

صار مهندس الحدائق، ابن عم صاحب الدار، الذي يسكن في المنتجع القريب، يحضر يوميًّا لمناقشة الخطط مع البستاني وصاحب الدار، وللإشراف بنفسه على التنفيذ. في المساحة المنبسطة ما بين البيت والبحيرة يجب استئصال غابة الصنوبر، ونثر طبقة من التربة الأم فوق الأرض كي ينمو حشيش المرج بصورة جيدة. والجزء الأيسر الأصغر من المرج أمام البيت مباشرة، يجب أن يحاط بشجيرات إبرية وبيلسان أسود، وسيكون الفاصل بينه وبين الشرفة حوض ورد فحسب.

في نهاية المرج سيبقى السور الخشبي فاصلًا عن أرض الجيران المتروكة للطبيعة، والقسم الأكبر من المرج على يمين الدرب المؤدي نزولًا إلى البحيرة ستحده شجرة البلوط الكبيرة ومجموعة من شجيرات التنوب، ثم شجيرات الفورسيتيا والليلك والورد الخلنجي، وتليها أجمات يجب أن تزرع عند أحجار حدود قطعة الأرض حتى الدرب الرملي.

ستزرع بعض الشجيرات الجديدة لتولِّد انطباعًا بتدرج طبيعي، شجرة زعرور بري مثلًا على الجانب الأيسر من المرج، وشجرة كرز ياباني على الجانب الأيمن، شجرة جوز وشجرة شربين أزرق عند المعابر إلى الأجمات والأشجار الكبيرة الموجودة في الخلف من الأصل.

إضافة إلى أشجار الصنوبر على المنحدر باتجاه البحيرة ستزرع شتلات بلوط يافعة، وشجيرات بندق تنمو طبيعيًّا في هذا المكان، وبكثافة تمنحها تماسكًا أشد مع شجيرات من أنواع أخرى.

سيبقى الطريق إلى البحيرة سالكًا ببناء دَرَج على المنحدر من ثمانية مقاطع، يتشكل كل مقطع منها من ثماني درجات مصنوعة من الأحجار الطبيعية، كبلاطات غير متصلة ببعضها.

بما أن المساحة السفلى عند الماء ظليلة جدًّا بسبب أشجار جار الماء التي تملأ شريط الشاطئ، أوعز مهندس الحدائق إلى البستاني، بالاتفاق مع صاحب البيت، بقطع بعض الأشجار هناك، وتجفيف الشريط الشاطئي. ولكن بما أن المكان ليس جميلًا حقًّا للجلوس فيه، وللاستفادة منه على نحو أفضل، قرر صاحب البيت أن يبني هناك حسب مخططاته ورشة ومستودعًا للحطب. وسيرى لاحقًا أين يمكن أن يبني لسانًا خشبيًّا على ضفة البحيرة.

قال مهندس الحدائق لابن عمه صاحب البيت، فيما كان البستاني يفرغ عربة يدوية من تربة السماد في حوض الورد المستقبلي أمام الشرفة:

ـ كلا المرجين العلويين سيصيران من خلال الإطار الطبيعي أشبه بخشبتَي

مسرح.
قال صاحب البيت:
ـ الأمر يعتمد أساسًا ودائمًا على توجيه النظر.
فأجاب مهندس الحدائق:
ـ وعلى التبدل: نور وظلال، مساحة حرة، نباتات كثيفة، المشاهدة من الأعلى، النظر من تحت نحو الأعلى.
كان البستاني يوزع التربة بطرف مجرافه بصورة متوازنة في الحوض. قال صاحب البيت:
ـ يجب أن تنشأ علاقة صحية بين الخطوط الأفقية والخطوط العمودية.
أجاب مهندس الحدائق:
ـ تمامًا.
وتابع:
ـ لهذا لا يمكن لهذا الانحدار باتجاه الماء الذي يشبه الدَّرَج كمعطى طبيعي أن يكون أفضل.
دفع البستاني عربة اليد الفارغة مبتعدًا. وقف الرجلان على الشرفة ينظران نحو الأسفل، نحو البحيرة التي يلمع سطحها ويتلألأ بين جذوع أشجار الصنوبر المشوبة بالحمرة. دفع البستاني العربة وأفرغ حمولتها الثانية في الحوض.
قال صاحب البيت:
ـ أن تسيطر على الطبيعة البرية ثم تدعها لتصطدم بالتهذيب الحضاري، هذا هو الفن.
قال ابن عمه وهو يهز رأسه:
ـ تمامًا.
كان البستاني يوزع التربة بطرف مجرافه بصورة متوازنة في الحوض. قال صاحب البيت:
ـ أن تخدم الجمال حيثما وجدته.
ـ تمامًا.
دفع البستاني عربته الفارغة أمام الرجلين الصامتين على الشرفة.
قطع البستاني إذن عددًا من أشجار الصنوبر ونشرها وحطَّبها وصفَّها في المستودع فوق بعضها. استأصل الجذور ووضع كمية كبيرة من التربة الأم لتشكل طبقة فوق رمال ماركِن. مهَّد البستاني الطريق بين المرجين الصغير والكبير ثم نزولًا نحو الماء، فرصف بالحجر الرملي ثماني درجات ثماني مرات. زرع بذور الحشيش، وزرع الورد، وزرع الشجيرات سورًا للمرجين الصغير والكبير، زرع الأجمات على المنحدر، زرع الزعرور والجوز والكرز الياباني والشربين الأزرق. في أثناء الحفر، وبعد طبقة رقيقة من «الدُّبَّال» (٢)، اصطدم البستاني بطبقة حجرية، لا بد من تكسيرها بالمجراف

للوصول إلى الطبقة الرملية التي تحتضن المياه الجوفية. وتحت هذه الطبقة الرملية أخيرًا يظهر الطين الأزرق المعروف في المنطقة كلها. حدث فيما مضى من الأيام أن جرفت البحيرة هذا المرتفع الذي أسماه الناس جبل الرعاة، فقبل آلاف السنوات لم يكن جبل الرعاة هذا سوى مرتفع تحت الماء، مثل جبل الخيار والقرن الأسود وكيبرلينج وهوفْتِه وبولْتسِنبِرج ونَكْليجِر وميڤْداك، تحت سطح البحيرة اليوم. كذلك خلَّدت نفسها رياح ذلك الزمن، التي حركت سطح البحيرة في المنطقة الرملية ذات الأشكال الموجية التي اصطدم بها البستاني في أثناء حفره الثقوب لزراعة الأشجار. حفر البستاني الثقوب حتى عمق ثمانين سنتيمترًا، وأهال فيها تربة سماد لكي تنمو الأجمات والكرز الياباني والزعرور والشربين الأزرق والجوز بصورة جيدة. وقطع البستاني خمسًا من أشجار جار الماء على شريط الشاطئ، واستأصل جذورها، جدل ضفائر من أغصان الشربين الخضراء وأنزلها في الثقوب لتساعد في تجفيف التربة. سقى البستاني الورد والأجمات والشجيرات وشتلات الأشجار مرتين يوميًّا في الصيف، في الصباح الباكر وعند الغسق، واستمر في ري تربة المرجين العاريين حتى انتشت الحشائش.
في الخريف قلَّم البستاني جميع الأجمات والشجيرات على طول حجارة الحدود، وكذلك الفُرسيتيا والليلك في الربيع التالي عقب الإزهار. واستأصل الأعشاب الضارة من بين الورد الذي قلَّمه. حصل من الفلاحين على روث البقر وسمد به الزعرور والجوز والكرز الياباني، والفرسيتيا والليلك والورد الخلنجي أيضًا. سقى الورد والشجيرات في أثناء الصيف مرتين يوميًّا، في الصباح الباكر وعند الغسق. وكان ينصب في كلا المرجين مرشًّا يتحرك مدة نصف ساعة مرتين يوميًّا، في الصباح الباكر وعند الغسق. كل أسبوعين أو ثلاثة يحش البستاني الحشيش، ويستخدم في الخريف منشارًا طويلًا لإزالة الأغصان الجافة عن الأشجار الكبيرة، ويدخن جحور الخلد وأنفاقه، ويجمع الأوراق والأعشاب الميتة ويحرقها. وعند نهاية الخريف يفرغ البستاني جميع أنابيب المياه في البيت ويغلق الصنبور الرئيسي. ثم يبدأ بتدفئة البيت للشتاء تحسبًا لقدوم المهندس المعماري وزوجته، ويفتح صنبور الماء طوال تلك الزيارة.

المهندس المعماري

من المؤلم أن يضطر الآن إلى دفن كل شيء، خزف «مايسن» (٣) والأباريق القصديرية وأدوات الأكل الفضية، وكأن الحرب قد قامت. إنه حتى لا يدري ما إذا كان يدفن شيئًا ما، أم يخبئ مؤونة من أجل عودته. أليس الأمران من حيث الجوهر متطابقين يا ترى؟ إنه يعرف الآن بصورة عامة أقل بكثير مما كان يعرف. قبل دخول الروس مباشرة رتَّبت زوجته هذا الخزف وهذه الأباريق القصديرية وأدوات الأكل الفضية نفسها في صناديق، لكنها وضعت الصناديق في القارب آنذاك، وجدفت حتى هضبة نَكْليجر الموجودة تحت الماء والتي تعرفها جيدًا من السباحة، وأغرقت كل شيء هناك. كان هذا الموضع في وسط البحيرة ضحلًا جدًّا، إلى درجة أنها كانت في الصيف تبتعد دائمًا في سباحتها ثم تقف فجأة، تلخبط الطحالب بقدميها وتتظاهر ضاحكة بأنها تغرق. وفي تفتيش الروس عما يحتمل أن يكون مخبأً، لم يخطر ببالهم سوى استخدام عصي طويلة ونكش الأحواض والمروج بها. وبينما هم ينكشون كانت البحيرة قد شطفت الغبار بكل هدوء عن الكنوز المخبأة في مأمن عنهم. سيكون لدى سكان البيت الجدد وقت أطول للسباحة.

لقد حالفه الحظ بأن كان الشتاء معتدلًا في تلك السنة، بحيث تمكن من حفر الأرض بالمجراف. طمر الأباريق القصديرية بين جذور شجرة البلوط الكبيرة، وخزف مايسن تحت أجمة التنوب، وأدوات الأكل الفضية في حوض الورد بجانب البيت مباشرة. ارقدي بسلام. إنه يعرف أنه خلال ساعتين سيكون جالسًا في المترو نحو برلين الغربية، وأطراف أظافر يديه مسودة من التربة. يردم المهندس المعماري الحفر وهو يتساءل عما إذا كانت الأباريق القصديرية ستنبت أباريق قصديرية، والصحون والفناجين صحونًا وفناجين، والشوك والسكاكين والملاعق شوكًا وسكاكين وملاعق، لتأخذ مكانها بين الورد. وفكر فيما إذا كان عليه طمر المجراف أيضًا في الختام وردم الحفرة بيديه. إنه حقًّا لم يعد يعرف ما كان يعرفه ذات يوم: ما الذي يسمى كنزًا وما الذي لا تسري عليه التسمية. هل سيسعده حقًّا عند عودته، إن كانت هناك عودة، العثور على خزف مايسن ثانية أكثر من عثوره على هذا المجراف بماركين ونصف المارك الذي مُسحت قبضته مسحًا من يدَي البستاني طوال الأعوام العشرين الأخيرة؟ لكن هذه القبضة الخشبية سيأكلها الدود في كل الأحوال. لن يدفنه إذن، بل سيعيده كالعادة إلى مستودع الأدوات عند ضفة البحيرة تحت، حيث يحتل المجراف مكانه منذ عشرين عامًا بين المناكيش والمعازق والرفوش. قفل باب مستودع الأدوات بالمفتاح. على المفتاح

يتأرجح الغمَّاز الذهبي الذي استخدمه سابقًا في صيد السمك، صعد الدرجات الحجرية ثانية، علَّق المفتاح في لوحة المفاتيح في الغرفة، غسل يديه في الحمَّام. بعد ساعتين سيكون جالسًا في المترو نحو برلين الغربية، بأطراف أظافر يديه التي ما زالت سوداء من التربة. سحب من الجدار ذراع تحريك أباجورات النوافذ لآخر مرة، وأقفل الدرفات بالآلية السرية التي ابتكرها بنفسه عندما كان شابًّا كي يدفع زوجته إلى الضحك.
صعد دَرج المنزل مرة ثانية، الدرجات الخشبية الثانية والسابعة وما قبل الأخيرة تطقطق، يتجاوز غرفة زوجته، تنبعث منها كالعادة رائحة نعناع وكافور. الطريق إلى مرسمه يمر عبر الغرفة-الخزانة المعتمة، حيث فتح نافذة صغيرة نصف دائرية يظللها قصب السقف كحاجب. قبل مدة قصيرة ظهر له نمس على هذه النافذة من الخارج. نظر النمس عبر العين إلى داخل البيت، في حين نظر هو عبر العين إلى الخارج، وقف الإنسان والحيوان للحظة جامدين، ثم انسل النمس. ألواح الزجاج الحليبية التي ركَّبها في ثلاث فتحات في كلا مصراعَي الباب المؤدي إلى مرسمه ترن في أذنَيه لآخر مرة بهدوء. يفتح الباب ويدخل. يقف برهة وراء طاولة الرسم وينظر إلى الأسفل، نحو البحيرة. ما زالت على الطاولة تصميماته لأول بناء سينشئه في وسط برلين، أهم ما كُلف به طوال حياته بوصفه مهندسًا معماريًّا، وهي المهمة التي قضت عليه الآن. سمع خربشة النُّموس بين خشب البناء. النُّموس ستبقى هنا.
هبط الدَّرَج ثانية، نزولًا تطقطق الدرجات الثانية والخامسة عشرة وما قبل الأخيرة. كان قد نحت في نهاية خشب الدرابزين حبات عنب وأوراقها. قفل الباب. في بنطاله يخشخش المفتاح العام الذي يفتح ويقفل جميع أبواب البيت وباب المنحل ومستودع الخشب، مفتاح أمان ماركة «تسايس إيكون» الشهيرة، صناعة ألمانية فائقة الجودة حتى اليوم. قفل الباب، عبَر القاعة، مشى على بلاط من حجر رملي فاتح اللون قياس الواحدة منها خمسون بخمسين، قبضة باب الردهة نحاسية مشطوفة الوجه العلوي لوضع اليد عليها، ومحززة من الجوانب لتسهيل وضع الإبهام حولها. عند ضغطها نحو الأسفل تصدر تأوهًا معدنيًّا. بلاط الحجر الرملي تحت قدميه عند المدخل قياس الواحدة منها ثلاثون بثلاثين. العصافير تطير على باب حجرة الأدوات، تطير منذ قرن، والزهور تزهر منذ قرن، وعناقيد العنب تتدلى، جنة عدن في اثني عشر فصلًا مربعًا. كان قد فك هذا الباب من دار عزبة قديمة وركبه هنا. جماله يجعله ينسى ما يخفيه من فَراش ومكانس ودلاء ومماسح ورفوش ومقشات. توجيه النظر، هكذا كان يفكر دائمًا، توجيه النظر. في المطبخ يقطر الصنبور، لا بد من شده بحزم. النظر إلى الخارج من خلال ألواح الزجاج المحدبة، إلى الدرب الرملي والأشجار. الزجاج الملون يلون حتى الأشجار العارية فيملأها خضرة، توجيه النظر، اليوم الأول من السنة الجديدة، البستاني ما زال نائمًا، ولا أحد يتمشى بعد. نخب رأس السنة. خلال ساعتين سيكون جالسًا في

المترو نحو برلين الغربية.
سيقفل. سيقفل وسيترك المفتاح في القفل، إذ لا يجوز أن يكسروا عظامه، لا يجوز أن يكسروا الباب، ولا القضبان التي تدعم زجاج المدخل، آمل ألا يثنوها وألا ينشروها. هذه القضبان مطلية بالأحمر والأسود، تمامًا مثل قضبان مدرسة المراكب الشراعية التابعة للرايخ، التي فُجرت بالقنابل قبيل نهاية الحرب، من دون أن يعرف أحد السبب. سيقفل. كانت مهنته حتى ذلك الحين مرتبطة بثلاثة أبعاد: الارتفاع، العرض، العمق. أراد أن يبني أبنية عالية وعريضة وواسعة، لكن ما سبقه الآن هو البعد الرابع، الزمن، والزمن يطرده الآن من ملجئه الآمن. قال الموظف:
ـ لن نعتقل أحدًا خلال عطلة نهاية الأسبوع.
وأطلق سراحه ثانية. إذن لم يريدوا إعدامه، بل إبعاده، إقصاءه، وإلى جهنم إن أمكن. خلال ساعتين سيكون جالسًا في المترو الذي يوصله إلى برلين الغربية. قال الموظف:
ـ خمس سنوات سجنًا، كحد أدنى.
مقابل طن من البراغي اشتراه في الغرب بماله الخاص لكي يبني في الشرق. طن من البراغي النحاسية لأهم عمارة في حياته، في وسط برلين في شارع فريدريش. عمارة للدولة التي تطارده الآن. إنه يعرف الآن أقل بكثير مما كان يعرف سابقًا.
مهنته هي تخطيط الوطن. أربعة جدران حول قطعة هواء، قطعة هواء تقتلعها بمخالب حجرية من كل ما ينمو ويتمايل وتجعلها متماسكة. وطن. المنزل هو الجلد الثالث بعد غطاءي اللحم والثياب، هو البيت. أن تخطط منزلًا حسب احتياجات صاحبه. الأكل، الطبخ، النوم، الاغتسال، التغوط، الأطفال، الضيوف، السيارة، الحديقة. أكل هذا ضروري؟ أم هذا نعم وذاك لا؟ وحساب ذلك كله من خشب وحجر وزجاج وقش وحديد. أن تمنح الحياة اتجاهات، والدهاليز أرضًا تحت الأقدام، والأعين منظرًا، والهدوء أبوابًا. وهذا هنا كان بيته. لقد صمم كرسيين له ولزوجته مع وسادتين جلديتين، وصمم الشرفة المطلة على البحيرة ليراقب هو وزوجته غروب الشمس منها، ومن أجل استقبال الأصدقاء المشتركين والضيوف صمم المائدة الطويلة للغرفة الكبيرة، ولدرء البرد عنه وعنها في الشتاء جلب المدفأة الحجرية الهولندية، والديوان الممتد أمامها من أجل تعبهما بعد التزلج على الجليد، ويمكن للمرء أن يقول إنه قد صمم المرسم من أجل تخطيطاته على طاولة الرسم. والآن يجب أن يكون فرحًا لإنقاذ حياته العارية، بأن يخلع جلده الثالث ويصل بأحشائه اللماعة إلى الغرب المنقذ.
عندما تجد نفسك على الخطوط المعادية، ضع نصب عينيك دائمًا خط رجوعك. في الحرب العالمية الأولى كان هذا القول سهلًا، نظريًّا فحسب. لقد رموا القنابل حتى على باريس، ولكن بعد ذلك أصيبت السفينة الجوية، فبدأت

تهوي ببطء إلى أن سقطت أخيرًا على سطح إسطبل في قرية بلجيكية، فدُفنت قوارب الإنقاذ الجانبية تحت كيس المنطاد الهائل المتراخي. عندما تمكن مع رفاقه من الخروج من تحت القماش رأوا تحتهم في الحوش بعض الدجاجات تنكش الرمل وقطة نائمة تحت أشعة الشمس، وفقط عندما جلب الفلاحون سلمًا بدلًا من أن يطلقوا عليهم النار، عرفوا أن القرية محتلة من قبل الألمان. كانت محض مصادفة إذن أنهم لم يُقتلوا، بل نزلوا على سلم بلجيكي إلى الحياة. من المنطاد يتبدى العالم وكأنه مسقط هندسي، ولكن ما كان ممكنًا من ذلك الارتفاع رؤية مسار خط الجبهة. بالنسبة إليهم كانت القرية التي أنقذت حياتهم موقعًا ألمانيًّا، وبالنسبة إلى الفلاحين البلجيكيين هي الوطن، وربما كان خط الجبهة يمتد تحديدًا بين شاربَي القطة النائمة. وما تعلمه آنذاك هو أنه لا يجوز أن يتعرض أبدًا لمثل ذاك الخطر. مشى يسارًا حول البيت ماڑًا بالورد الخلنجي. تحت أقدامه القضبان المعدنية التي غطى بها جميع نوافذ القبو في أثناء الحرب العالمية الثانية. كُتبت على القضبان عبارة: «شركة مانِّسْمان للحماية من الغارات الجوية» حتى الآن في عز السلام. في الحرب العالمية الثانية كان قد كبر جدًّا على القتال، لكنه بأسلوبه الخاص وسَّع موقعه. اهجم دائمًا والشمس وراءك، كانت القاعدة الأولى في المعارك الجوية.

مسحت الشمس صباحًا شجرة الصنوبر المرتفعة أمام البيت، وهذا يبشر بأن الطقس سيكون جميلًا طوال النهار. لا تزال الشرفة في ظل البيت، أي أن زبدة الفطور لن تذوب. شعشعت الشمس طوال النهار على المرجين، على يمين ويسار الدرب الذي يؤدي نزولًا إلى البحيرة. كانت أختا زوجته مستلقيتَين وجالستَين هناك على العشب مع أطفالهما، ليلعبوا وينامواويقرأوا. كانت الشمس تنثر بقع نورها على درب المنحدر، متسللة من خلال أوراق البلوط وإبر الصنوبر وشجيرات البندق، ساقطة على الدرجات الثماني المتماسكة والمتكررة ثماني مرات، مرصوفة ببلاطات الحجر الرملي غير المتصلة ببعضها. الطبيعة. تغلغلت الشمس، تحت، عند البحيرة عبر أشجار جار الماء متمددة حتى التربة السوداء الرطبة للضفة، وكلما اقترب المرء من سطح البحيرة الوهاج علا حفيف أوراق الأشجار وازدادت الظلال من حوله، تعتيم، غارة جوية، لكن هذا كله لم يكن إلا من أجل إعماء المصطافين للحظة عندما يطأون اللسان الخشبي. مشى بين الشمس والماء حتى نهاية اللسان الخشبي، ولم يكن هناك سواه مما يولِّد ظلالًا. هنا انسكبت الشمس فوقه كله وفوق البحيرة التي عكست نور الشمس إليها، وذاك الذي وقف أو استلقى على نهاية اللسان أخذ يراقب هذا اللعب، وسحب بصورة عرضية شوكة من يده دخلتها في أثناء جلوسه أو استلقائه، تشمم لون القطران الذي دُهنت به ألواح الخشب، سمع صوت اصطفاق الماء على حواف القارب في بيت القارب، وصوت صلصلة السلسلة التِي ربط بها، رأى الأسماك واقفة في

الماء الصافي والسرطانات تزحف، أحس بحرارة العوارض الخشبية تحت قدميه وساقيه وبطنه، شم رائحة جلده، استلقى أو أكل هناك مغمضًا عينيه بسبب شدة سطوع الشمس. وفي الدم وراء جفنيه المغمضَين رأى الكرة المتلألئة.
لو لم تكن قطعة الأرض والبيت والبحيرة وطنه لما شده شيء للبقاء في القطاع الشرقي من ألمانيا. الآن أصبح وطنه فخًّا. عند انتهاء الحرب مع الروس في برلين أمضى خمس ليالٍ من التفاوض والسُّكر كي يمنع ترحيل آلات معمله في برلين المتخصص بالنجارة، وتمكن من إنقاذ معمله ومكتبه الخاص بالهندسة المعمارية من موجة التأميم، مع التحيات الاشتراكية. حتى إن كتاب رفض شبير (٤) قد ساعده أخيرًا لدى الحمر في الحصول على تكليف البناء في شارع فريدريش. أما الآن، بعد مرور ست سنوات على نهاية الحرب، فقد انقض الشيوعيون على مؤسسته الصناعية، فجأة في عز السلام خطر ببالهم «لا ترفع عينيك عن عدوك»، تمامًا مثل مجموعة أطفال ينقضون على دمية حيوان لا يعرفون عنه شيئًا، يخلعون رقبتها ثم يستغربون توقف الدمية عن الحركة.
لقد كدَّ طوال حياته كي يحول المال إلى شيء حقيقي. اشترى أولًا نصف قطعة الأرض وبنى عليها البيت، وبعد مدة من الزمن اشترى النصف الآخر مع اللسان الخشبي وغرفة «المشلح» (٥) الصغيرة، بكل ماله الذي كدح في جمعه ونما هنا في صورة محسوسة متماسكة، إذ تحول حرفيًّا إلى بلوط وجار الماء وصنوبر. وكان اسم هذه العملية آنذاك توظيف المال، أن توظف المال في أثناء الأوقات المضطربة فيما له قيمة ثابتة. هكذا تعلم. لكن للأسف، فإن ما تعلمه غيَّبه واقع المرحلة الأخيرة، ففي خضم الفوضى الخرافية التي خلَّفها الروس للألمان وراءهم بات من المؤسف أن يمتلك أحدهم قطعة أرض وليس بساطًا طائرًا.
إن مَن يبني يلصق حياته بالأرض مرة وإلى الأبد، ومغزى مهنته أن يمنح البقاء جسمًا، إنه خلق داخلي. أن تنحت أعمق فأعمق حيث لا يوجد شيء. من الخارج يبدو الزجاج الملون لغرفة المعيشة التي يمر إلى جانبها باردًا يأبى اختراق النظر إلى ما ورائه، لكن النور لا يتجلى إلا عندما يجلس المرء وراء الزجاج، عندها يتبدى كنور، أي عندما يُستخدم. حتى الرسام دورَر لم يكن يرى عبر ألواح ملونة مثل هذه سوى نور العالم وليس العالم نفسه. كان يجلس وراءها في الداخل ويبدع عالمه الخاص. فإذا ما أرادت زوجة دورَر أن تعرف من يتمشى في ساحة نورنبرج كان عليها أن ترفع درفة صغيرة كي تطل عبرها على الساحة. كلما ازدادت سماكة الجدران صغرت النوافذ وقلَّت كمية الدفء التي يخسرها سكان البيت. كل ما استخدمه في البناء من حجارة

وقش وملاط أخذه من المنطقة نفسها. وصمم بين زاوية الجملون ومزراب السقف الرئيسي نافذة صغيرة متحركة، كي ينسجم مظهر البيت مع النسيج المعماري للمنطقة وكأنه قد نبت فيها. وساهم بنفسه في بناء المدخنة، وكان على تفاهم تام دائمًا مع عمال البناء والفلاحين، ولكن ليس مع هذه الدولة التي لا يعرف فيها هذا الموظف ما فعله الآخر.
كان في الصيف يسبح دائمًا قبل مغادرة المكان. والآن في كانون الثاني (يناير) سبح أيضًا، ولكن حتمًا ليس في البحيرة. حتى زوجته ما كانت لتضحك من هذه النكتة البائسة، على الرغم من حبها للضحك. لم يعد يدري متى سيسبح هنا آخر مرة، ولا حتى إن كان في اللغة الألمانية حركة سحرية تحول صيغة الفعل الماضي إلى المستقبل؛ ربما في يوم ما من مطلع أيلول (سبتمبر). لم تكن المرة الأخيرة آنذاك مرة أخيرة بهذا المعنى، ولهذا فإنه لم يحفظها في ذاكرته. لم تصبح المرة الأخيرة إلا منذ الأمس فقط، وكأن بإمكان الزمن على الرغم من الإمساك به بشدة في اليد أن يتملص ويتمدد في الجهات كافة، ويتفلت ويلتف حول المرء حسبما يريد. لا شك في وجود منشفة خضراء ما زالت معلقة في المشلح تحت. يحتمل أن يستخدمها الآن شخص آخر لينشف جسمه. عندما استلم المشلح من العائلة اليهودية كانت مناشفها لا تزال معلقة هناك. وقبل أن يخطر ببال زوجته أن تغسلها سبح ونشف جسمه بإحدى هذه المناشف الغريبة. كانوا أصحاب معمل نسيج. قماش فوط «فروتيه» من النوع الأول. فليكن. رفض طلبه الأول للانتساب إلى «غرفة تراث الرايخ»، لأنه أجاب في الاستمارة عن السؤال عن أصله العرقي الآري بـ: «نعم ولا». في جميع أنواع الهجوم ثمة ضرورة إلى الاقتراب من العدو من الوراء. فروتيه. أشار عليه أحد زملاء المدرسة الطيبين بأن الانتماء العرقي إلى الأجداد غير مهم في طلب انتساب كهذا. وقدم بناء على ذلك طلب انتساب جديدًا أجاب فيه عن سؤال العرق بـ: «نعم»، وأرفق الطلب بوثائق عنه وعن زوجته تثبت نقاءهما العرقي حتى جد الجد. قُبل طلب انتسابه. هذه «النعم» وهذه «اللا». كانت الفراغات ما بين الألواح الخشبية السميكة في المشلح محشوة بصوف الكتان. كان كل شيء مسمرًا بصورة مؤقتة. ومع ذلك فقد دفع للعائلة اليهودية نصف سعر السوق لقاء حصتها. ولم يكن المبلغ قليلًا آنذاك، ففي تلك العجالة لم يوجد شارٍ آخر. بصوف الكتان. أُمُّ أُمِّ والده. «نعم» و«لا». لقد ساعد العائلة اليهودية بشرائه أرضها في تمويل هجرتها، إلى أفريقيا على الأغلب، أو إلى شنجهاي، راضين أم كارهين. بشرائه قطعة الأرض موَّل هجرة جوابه بـ: «لا» في استمارة الانتساب. إلى أفريقيا أو شنجهاي، الأمر سيان، الخروج هو المهم، خروجه، الخروج والخروج فقط. «نعم» و«لا». اهجم والشمس وراءك. اهجم من الشمس إلى الشمس، حتى يحترق كل شيء، ثم أطفئه ببحر ماركِن. «نعم» و«لا». ليت الصحاري في أفريقيا والغابات العذراء في الصين كانت من الكبر

بحيث تموت «لاؤه» من الجوع والعطش وتفترسها الحيوانات المتوحشة. «هل أنت من أصل آري؟»، «نعم». إذن لماذا يجب عليه أن يغادر الآن؟ البارون مونشهاوزن سحب نفسه بضفيرة شعره من المستنقع. لكن المستنقع لم يكن وطنه. بات المهندس المعماري يعرف أقل بكثير مما كان يعرفه. لقد جفف جسمه بمنشفة اليهودي وأعادها إلى مكانها على المشجب. منشفة بيضاء من قماش الفروتيه، نوع أول. صار لاحقًا عضوًا في «غرفة تراث الرايخ»، وحصل لاحقًا على ترخيص لبناء جراج للقارب إلى جانب اللسان الخشبي. منشفته الفروتيه التي ما زالت معلقة تحت لونها أخضر.

قفل البوابة من الخارج بالمفتاح الثاني الذي وضعه في جيبه تحسبًا لكل الأحوال. ماركة المفتاح «تسايس إيكون»، صناعة ألمانية نخب أول. عندما جاء إلى هنا مع انبلاج الفجر كانت قبضة البوابة مبلولة من الندى. غادر المهندس المعماري الحديقة الأمامية عبر باب السور الصغير وخرج إلى الدرب الرملي. إذا مشى الإنسان قليلًا والتفت إلى الوراء فسيرى الواجهة الأمامية ثانية، وكأنه لم يكن في الداخل قَطّ، سيرى الأمر نفسه الذي يستقبله عند قدومه. وضع المفتاح في جيب بنطاله ومشى نحو السيارة. يبدو أن البستاني ما زال نائمًا. قد ينشر لاحقًا في أثناء النهار شجرة الشربين الأزرق التي سقطت قبل يومين. أما هو، صاحب شجرة الشربين الأزرق ومالك الأرض بين جذورها التي باتت عارية الآن، فسيكون في برلين الغربية.

البستاني

تلبية لرغبة صاحب البيت جهز البستاني في الربيع حوضًا على جانب الدرب المؤدي إلى البيت، زرع فيه خشخاشًا وورد عود الصليب وزهور الغابة الصفراء، وزرع في وسطها شجيرة أبواق الملائكة. وبغرض تحديد الحوض غرس على جوانبه ببساطة أغصان سنديان ستمد جذورًا وتنمو. وفي الصيف كان يضع مرشَّي الماء على المرجين مرتين يوميًّا في حركة بندولية لمدة نصف ساعة، مرة في الصباح الباكر ومرة مع بداية الغروب، وفي أثناء ذلك يروي الحوض والورد والشجيرات، يقص النباتات الجافة ويقلِّم شجرة السنديان. وجمع في الخريف لأول مرة ثمار الجوز، وصارت يداه بنيتين نتيجة تقشير قشرة الجوز الطرية، ثم أخذ يجمع في الخريف الأغصان اليابسة التي كسرتها العواصف من شجرة البلوط وأشجار الصنوبر وأسقطتها أرضًا، فينشرها ويحطِّبها ويرتبها في مستودع الخشب.
كانت حشرة البطاطا في عام ١٩٣٦ قد تجاوزت نهر الراين متجهة نحو الشرق، ووصلت في عام ١٩٣٧ إلى نهر الإلبه، وتموضعت في عام ١٩٨٣ في المنطقة المحيطة ببرلين. أخذ البستاني يجمع الحشرات بكل صبر، مرة بعد مرة، من أوراق شجيرة أبواق الملائكة، وهي النبتة الوحيدة في الحديقة التي أصيبت بهذا الوباء إصابة بالغة. كان يهرس بيوض الحشرات الضارة، ويحاول حتى عن طريق قلب التربة حول الشجيرة العثور على الشرانق وإفناءها. في ذلك الصيف كاد الدرب الرملي يسْوَد نهارًا من حشرة البطاطا. إذ كانت أوراق الشجيرة الرائعة ذات الزهور الحمراء قد ثُقبت والتُهمت أطرافها مع بداية الجائحة، فلم يبقَ من الشجيرة عند نهاية الصيف سوى الهيكل، وبعض الأضلاع القليلة، وجذع الشجيرة الرئيسي العاري، أما الزهور فقد سقطت منذ مدة طويلة. بناء على تعليمات صاحب البيت استأصل البستاني بقايا شجيرة أبواق الملائكة، وغرس في مكانها شجرة سرو كمركز جديد لحوض الزهور.

صاحب مصنع القماش

هرميِنه وأرتور، والداه.
هو اسمه لودفيج، البكر.
اسم أخته إليزابت، متزوجة من إرنست.
ابنتهما، ابنة أخته، اسمها دوريس.
ثم زوجته آنّا.
والآن الأطفال: إليوت والصغيرة إليزابت المسماة على اسم أخته.
يرمي إليوت الكرة الصغيرة. تتدحرج الكرة على العشب وتدخل حوض الورد. ترفض إليزابت إحضارها لأنها تعرف أن للورد أشواكًا، فيركض الأخ إلى الحوض، ينسل بين الورد، يميله بكوعيه جانبًا ويركل الكرة بقدمه باتجاه المرج. يمزج الورد حمرته مع الحمرة الداكنة لنبتة البوجنفيليا المعرِّشة على جدار البيت والمحيطة بزهورها نافذة غرفة المعيشة.
سافروا قبل الظهر بسيارة «الآدلر» على طول طريق الشاطئ باتجاه الشرق. قال أرتور: ـ «الآدلر» صناعة ألمانية ممتازة.
أجاب لودفيج:
ـ نعم.
سأل الأب:
ـ هل يوصلون إنتاجهم إلى هنا؟
أجاب لودفيج:
ـ نعم، لقد أوصلوا إلينا السيارة إلى هنا.
إلى جانبه تجلس أمه هرمينه. والدا لودفيج قادمان في زيارة. بعد أسبوعين سيعودان إلى وطنهما ألمانيا. وعلى شرف حموَيها ارتدت آنّا طقمها الأبيض، جاكيتًا وتنورة، ماركة «بيك وكلوبنبورج»، اشترته من أجل الهجرة في بداية عام ١٩٣٦ بمبلغ ٤٣.٧٠ مارك.
الوطن. هناك حركة شديدة في قطعة الأرض المجاورة، المساحون موجودون وكذلك بعض العمال اليدويين، ومعلم البناء مهندس معماري من برلين، يقف هناك ببدلة الجلد التقليدية التي تصل ساقاها إلى ما تحت الركبة، ويحييهم بقوله: «هايْل» (٦). قال الخال لودفيج لابنة أخته: ـ تعالي سأرفعك.
على ارتفاع كتفه في شجرة الصنوبر هناك حدبة في الجذع، رفع الخال ابنة أخته إليها وسألها: ـ ماذا ترين الآن؟
قالت دوريس وهي تشير إلى البحيرة:
ـ برج كنيسة.

قال الأب أرتور:
ـ يا له من منظر.
قالت الأم هرمينه:
ـ من الجنة.
أرتور وهرمينه والدا لودفيج قادمان في زيارة. وتحضيرًا للصورة التي التقطها لهما متنزِّهٌ آخر جلست آنَّا، زوجة لودفيج، على غطاء محرك «الآدلر»، في حين استندت هرمينه، أمه، إلى الجدار المنخفض الذي ينحدر الجبل وراءه مباشرة نحو البحر. أما هو وأبوه فقد وقفا وراء المرأتين، وكخلفية للصورة دعمت سلسلة الجبال على الطرف الآخر من الخليج الأربعة للحظة معًا. سيسافرون بعد تناول طعام الغداء إلى البحيرة الشاطئية، إلى الشاطئ، قد يسبحون. مياه المحيط الهندي دافئة وناعمة، على نقيض الشاطئ الغربي حيث يهوَج المحيط الأطلسي. بعد أسبوعين سيسافر أرتور وهرمينه، والدا لودفيج، إلى بلدهما ألمانيا.
قالت إليزابت الصغيرة بالإنجليزية وهي تركض إلى داخل البيت: ـ لا أريد بعد.
تناول إليوت الكرة بيديه، نططها عدة مرات ثم دخل إلى البيت أيضًا، كان البيت في منتصف الصيف مُدَفَّأً إلى حد أن الشموع على شجرة عيد الميلاد قد مالت ثانية.
يقول الوالد وهو واقف في مياه الجزيرة الشاطئية الدافئة مشمرًا بنطاله حتى ركبتيه: ـ تصور! إن قاربي الشراعي الذي أشارك به في السباقات قد انقلب قبل الوصول إلى الضفة بقليل.
قالت أمه هرمينه:
ـ دخل أبوك بنفسه وساعد في إعادة القارب إلى وضعه الطبيعي.
البنطال مشمر في بحر ماركِن. البنطال مشمر في المحيط الهندي. تقول الأم إن الشاب القروي الذي قاد المركب الشراعي من مرأب القوارب إلى هنا كان شاحبًا.
ـ تصور أنه كان طوال دقيقة تحت القارب. وقد جعله هذا يخاف.
أرتور وهرمينه، والدا لودفيج قادمان في زيارة. بعد أسبوعين سيغادران إلى بلدهما، ألمانيا.
الوطن. عندما تمطر يشم المرء رائحة أوراق الغابة والرمل. كل شيء هناك صغير وناعم، الأرض كلها هناك على شاطئ البحر مرئية بكاملها. الأوراق قريبة منك وكذلك الرمل إلى درجة أنه بوسع المرء أن يلبسهما على جسده. والبحر يواظب على لحس الشاطئ ببطء، يلحس اليد التي تُمد إليه مثل كلب، والماء ناعم وضحل.
سمَّى لودفيج الصغيرة «إليزابت» تيمنًا باسم أخته، وكأن أخته هذه قد انزلقت إلى قعر الأرض بحيث تمكنت من الخروج من الطرف الآخر، وكأن الأرض قد ابتلعتها ثم عادت في السنة نفسها من طرف العالم الآخر، لتولد من زوجته.

فهل ابنته إليزابت ودوريس شيء واحد؟
يخترق معدن المجاريف التربة بصوت حاد متجاوزًا الحصى. في قطعة الأرض المجاورة يسارًا تحفر الأساسات من أجل البناء. هايل.
بقفزة واحدة يتجاوز إليوت درجات البيت وصولًا إلى المرج، ليتمشى حتى شجرة التين ليقطف بعض ثمارها الطازجة. تناديه آنّا من نافذة غرفة المعيشة قائلة: ـ أحضر معك بعض الثمار لإليزابت أيضًا.
يجيب إليوت بالإنجليزية:
ـ تمام.
كان لودفيج قد زرع لطفليه، إليوت وإليزابت، شجرة التين وشجرة الأناناس خصوصًا في الجزء الخلفي من الحديقة.
تسأل إليزابت الصغيرة بالإنجليزية:
ـ لماذا علقتم الشرائط الفضية على الشجرة؟
فيجيبها والدها بالإنجليزية أيضًا:
ـ يفترض بأنها تشبه شجرة مغطاة بالثلج في الشتاء.
فتسأله إليزابت الصغيرة بالإنجليزية:
ـ ما هي الغابة المغطاة بالثلج؟
فيجيبها بمزيج من الإنجليزية والألمانية: ـ إنها غابة عميقة، غطَّى الثلج كل أغصانها وفروعها بطبقة سميكة، وتدلت النوازل من أغصان أشجارها.
يقول لودفيج لأبيه:
ـ دعنا الآن نرقب ما سيحدث.
يقول أرتور لابنه:
ـ ولكن الصفصافة على الأقل ستغرس اليوم.
ويناوله المجراف مردفًا:
ـ لقد وعدت دوريس بذلك.
تسمع من قطعة الأرض المجاورة أصوات المجاحف وهي تصطدم بالقرميد. هايل. يقول الأب: ـ صاحب البيت يشارك بنفسه في عملية بناء البيت، وخيرًا يفعل لنفسه.
بينما يحفر لودفيج الحفرة من أجل غرس الصفصافة. التربة سوداء ورطبة، وقريبة جدًّا من البحيرة.
في الربيع يُنعش البستاني دائمًا التربة من أجل الورد، فيقلِّب السماد النباتي ليتغلغل في التربة، في حين يقلِّم لودفيج الورد بنفسه. زهور السيلستيه والفجر الجديد تزهر هنا أفضل من أي مكان آخر في الدنيا، فهنا لا يتشكَّل الصقيع أبدًا. تقول الأم هرمينه: ـ يا له من ورد رائع.
أرتور وهرمينه والدا لودفيج قادمان في زيارة. بعد أسبوع ونصف الأسبوع سيغادران إلى وطنهما. تقول الأم هرمينه: ـ التقليم يسري دائمًا على البراعم الخارجية.

يقول لودفيج:
ـ أعرف ذلك.
ويملأ فنجانه بالشاي مجددًا. طقم شاي ماركة «روزنتال» تم شراؤه عام ١٩٣٢ بمبلغ ٣٧.٨٠ مارك.
يقول والده أرتور:
ـ وجارنا الذي يستورد البن والقهوة ما زال يعمل هناك في أساسات بيته.
يتابع لودفيج الحفر من أجل غرس الصفصافة. يقول أرتور والد لودفيج: ـ إنه المهندس المعماري نفسه، جارك إلى اليسار، إنه يشارك بنفسه في بناء المدخنة، رأيت ذلك بنفسي قبل قليل، لذلك فإني أطمئن إليه.
يقول لودفيج:
ـ في هذه اللحظة لا تتمنى آنَّا لنفسها سوى لسان خشبي ومشلح، ومن ثَمَّ سنرى.
عمَّال البناء في قطعة الأرض إلى اليمين يتخاطبون بصوت عالٍ. يقول لودفيج وهو يغمد المجراف في الأرض إلى جانب الحفرة: ـ أظن هذا كافيًا.
ينظر والده إلى بحر ماركِن الذي يترقرق ماؤه بهدوء. الوطن. يقول له أبوه:
ـ هذا هو إرثك.
يقول لودفيج، ابن أبيه الوحيد:
ـ أعرف.
حفيف أشجار الأوكاليبتوس أعلى من بقية الشجر الذي سبق أن سمعه لودفيج، أعلى من السنديان والزيزفون أو البتولا، أعلى من الصنوبر والبلوط وجار الماء. ولودفيج يحب هذا الحفيف، ولهذا كلما سنحت له الفرصة فإنه يستريح مع آنَّا والطفلين في ظلال هذه الأشجار الضخمة ذات القشرة الثخينة، ليسمع فحسب خفق الريح في أوراقها الفضية التي يتجاوز عددها المليار ورقة.
يرفع أرتور ـ والد لودفيج وإليزابت وجد دوريس ـ الجذع الرقيق عن الأرض ويغرسه في الحفرة، ينادي دوريس إليه ويقول لها: ـ امسكي!
تُوازن دوريس وضعها على حافة الحفرة ممسكة بالجذع الطري بيديها الاثنتين. الوطن. تقترب النساء. تحمل آنَّا حذاء دوريس بيدها بينما تقول إليزابت للودفيج: ـ ستجدون الراحة في هذا المكان.
يجيب لودفيج:
ـ طبعًا طبعًا.
تتقافز القرود بين جذوع الأشجار المقشَّرة والعالية. يُسمح لأقواها أن تأخذ حصتها من الغنيمة أولًا. إن أطعمها الإنسان، ظنت لهذا السبب أنه الأضعف، وتبدأ بمهاجمته بعنف إن توقف عن إطعامها أو إن تباطأ في ذلك. وعندها على الإنسان المحافظة على هدوئه والتراجع. يقول لودفيج لإليوت وإليزابت: ـ ادخلا إلى السيارة.

وتردف آنَّا:
ـ وارفعا زجاج النوافذ.
يقول أرتور لابنه لودفيج:
ـ دع عنك قليلًا الآن.
ويتناول المجراف ويهيل التراب في الحفرة حول جذور الشجرة. يضع لودفيج ذراعه حول آنَّا، حول زوجته مستقبلًا، وينظران معًا إلى سطح البحيرة الواسع المتلألئ. الوطن. تسأل دوريس: ـ لماذا ينظر الجميع بشغف إلى الماء؟
تجيب آنَّا:
ـ لست أدري.
فتقول دوريس:
ـ ربما لأنه يوجد فوق البحيرة دائمًا كثير من السماء الفارغة، لأن الإنسان يحب أحيانًا ألا يرى شيئًا.
يقول أرتور لدوريس:
ـ يمكنك ترك الجذع الآن.
أشجار الأوكاليبتوس تجفف التربة حتى العمق، فتمنع الماء عن النباتات الأخرى. وبعد كل حريق في الغابات تُنبِش بذورها أولًا، فتُنحِّي بذلك سائر النباتات الأخرى، وبما أنها تتخلص بانتظام من أغصانها الجافة فإنها توفر الماء. تساعد في اندلاع الحرائق التي تساعد بدورها على انتشار نوع الأوكاليبتوس بصورة واسعة. وبما أن خشبه يحتوي على زيوت بصورة كثيفة فإن جذوعه تشتعل بسهولة أكثر من أنواع الأشجار الأخرى. تكون التربة بين الجذوع في الغابات حديثة النمو مشوبة بالحمرة بسبب الحرائق. حفيف أوراق شجرة الأوكاليبتوس أعلى بكثير من سائر الأشجار الأخرى التي سبق للودفيج أن سمعها.
تقول الجدة هرمينه لدوريس الصغيرة:
ـ عندما تكبر الصفصافة وتدغدغ السمك بشعرها، ستعودين دائمًا لزيارة هذا المكان عند أبناء وبنات خالك، وستتذكرين أنك قد ساعدت في زرعها.
تسأل دوريس:
ـ أبناء وبنات خالي أنا؟
يقول أرتور مبتسمًا لزوجة ابنه المستقبلية آنَّا: ـ علم ذلك عند الرب وحده.
فتقول هرمينه:
ـ إنهم ما زالوا يسبحون الآن في قِدْر نقانق أبراهام.
تسأل دوريس:
ـ وهل يمكنهم أكلها؟
فيجيبها خالها لودفيج:
ـ هِراء، تعالي ساعديني.

يدكّ كلاهما التربة حول الجذع بأقدامهما، بحذاء كبير اشتُري عام ١٩٣٢ بمبلغ ٣٥ ماركًا وبقدمين صغيرتين حافيتين. الوطن.
يتراكض إليوت وإليزابت الصغيرة أمام الماء المتدفق من مِرَش المرج المتحرك، يتركان نفسيهما ليبتلا ويركضان ثانية. ينتزع إليوت ورقة من شجرة التين ليحول بها قطرات الماء نحو إليزابت، التي تنتزع ورقة تين أيضًا، ترفعها أمام وجهها لتختبئ وراءها من أخيها الكبير.
تلتقط دوريس بعض ثمار البلوط وتقذفها نحو البحيرة وتقول: ـ انظروا، سمك.
وتُري خالها لودفيج الموجات الدائرية. هايل يا شفيع صيادي السمك. هناك عند المهندس المعماري سيُحتفل غدًا برفع كرسي الشغل إلى السطح.
يصيح لودفيج:
ـ ماذا تلعبان هناك؟
فتهمس إليه إليزابت الصغيرة من وراء ورقة التين: ـ الطرد إلى الجنة.
هرمينه وأرتور، والداه.
هو اسمه لودفيج، البكر.
اسم أخته إليزابت، متزوجة من إرنست.
ابنتهما، ابنة أخته، اسمها دوريس.
ثم زوجته آنّا.
والآن الأطفال: إليوت والصغيرة إليزابت المسماة على اسم أخته.
يقول أرتور، الجد، لدوريس:
ـ سنجلب الآن ماء لنسقي الشجرة كي تنمو.
يعرف لودفيج أن الاستراحة تحت أشجار الأوكاليبتوس ليست سليمة تمامًا، بسبب كثرة تساقط أغصانها اليابسة عنها. لكنه يحب الإنصات إلى حفيف أوراقها. هناك في الوطن كان مغرمًا بالعزف على البيانو. كان يشتغل هناك في صناعة الأقمشة، مثل والده. أما هنا فقد افتتح ورشة سيارات وتخصص في المكابح ومبدل الغيارات. هنا يجب على بستانيه أن يسمح لموظف بأن يُدخل قلم رصاص في شعره الجعد. وبما أن القلم قد صمد في مكانه فقد حصل البستاني في جوازه على ختم حرف «C» (٧)، في حين مُنع هو من دخول الحدائق العامة. منذ أن وضع لودفيج قدميه هنا لم يلمس البيانو ثانية. الصغيرة إليزابت تعزف هنا عزفه، تتلقى دروسًا وتتعلم بسرعة، وكأنها، حتى من قبل أن تولد، قد تمكنت أن تأخذ معها من الوطن ما لا وزن له: الموسيقى.
تسأل دوريس جدها:
ـ ذكرني ثانية بأسماء الجبال في قعر البحيرة.
فيسألها أرتور:

ـ أي جبال؟
فيقول لودفيج:
ـ إن البستاني في قطعة الأرض المجاورة يسارًا ذكرها لدوريس قبل حين، وهي: جبل الخيار، القرن الأسود، كيبرلينج، هوفْتِه، نَكْليجر وبولْتسِنبِرج. وجبل ميْنْداك.
فتعيد الفتاة وهي تتكركر:
ـ نَكْليجر.
فتقول إليزابت:
ـ ليت لي مثل ذاكرة أخي.
يُسمع من الجوار تصفيق النجارين، فقد كادوا ينتهون من نصب كرسي الشغل على السطح. هايل. يقول أرتور الأب: ـ سيغطون السقف بالقصب.
ويردف:
ـ قد يكون هذا مفيدًا لسطح مشلحكم.
يقول لودفيج:
ـ سنرى.
يتبادل لودفيج مع والده والنجار الآراء حول المكان الذي سيُبنى فيه المشلح. على بعد عشرة أمتار من مياه البحيرة وبشكل غير موازٍ للشاطئ، وإنما مع ميلان قليل بحيث ينفتح على البحيرة كمنصة مسرح. في قطعة أرض مستورد القهوة والشاي، على الجانب الأيمن وراء السياج نهضت الآن أيضًا الجدران القرميدية للطابق الأرضي من المبنى المستقبلي. ثقوب مستطيلة للنوافذ، إضافة إلى فراغ أرضي من أجل بناء الشرفة المخططة معماريًّا، والتي يرى الإنسان عبرها كل ما في الداخل حيثما وقف أو نظر. أو يرى الأشجار والبحيرة إن وقف على الطرف الآخر. يطوي لودفيج المخطط الهندسي للأساسات. يقول الأب: ـ يمكنك أن تضع هنا على الأقل سريرًا بطابقين وطاولة غسيل.
يجيب لودفيج:
ـ لكننا لن نقضي الليل هنا أبدًا يا أبي.
فيعقب أرتور:
ـ ومع ذلك فإنهما لن يشغلا مكانًا واسعًا.
يضرب لودفيج بالمخطط المطوي بعوضة كانت قد حطت لتوها على ذراع والده. يتوقف الطرق في الأرض المجاورة يسارًا، بينما ما زالت تصل من اليمين أصوات المجاحف على القرميد العاري. انتهى وقت العمل. يقول الأب:
ـ هذا ميراثك.
يقول لودفيج:
ـ نعم، أعرف.
ويضع مخطط الأساسات في محفظته مع البعوضة: «طول المشلح 5.0 م،

عرضه ٣.٨٠ م. مادة بناء الجدران الخارجية: خشب. مادة بناء السطح: قصب»، ستُضغط البعوضة في المخطط على رف مكتب ألماني بين الأوراق، وسيمتد بها الزمن طويلًا هناك، وقد تتحجر، مَن يدري؟
ثمانية حوامل حديدية، توضع فوقها المسطحات التي يتشكل كلٌّ منها من عشرة ألواح خشبية مثبتة ببعضها. المسافة بين كل حاملين يغطيها مسطح واحد، فيصير طول اللسان الخشبي اثني عشر مترًا مطلية بالأسود، بلون القطران كي تدوم مقاومة الخشب للماء. تحمل آنّا دوريس على ذراعها قبل أن تطأ اللسان الخشبي، لخوفها من سقوط الصغيرة في الماء. تحيط دوريس بساقيها جسم آنّا. هايل. تقول لها إليزابت: ـ دعيها، لن تسقط.
ـ تعالي، سأضعك في سريرك، على الرغم من أن الظلام لم يحل بعد، لكن هكذا هي الحال في الصيف.
ـ وماذا عن إليوت؟
ـ صار كبيرًا.
ـ لكنني لا أريد.
ـ هيا تعالي.
ـ سآتي فقط إذا حملتني (بالإنجليزية).
ـ حسنًا (بالإنجليزية).
تحيط إليزابت الصغيرة ساقيها حول خصر آنّا. آنّا تحمل الطفلة، جسدًا إلى جسد، مَن يحمل الآخر؟ ربما لم يرغب لودفيج في الزواج بآنّا إلا لإعجابه بالطريقة التي تدفع بها جسمها إلى الأمام كي تتمكن من حمل ثقل طفلة.
عندما يحل هنا فصل الشتاء، يحل في الوطن هناك فصل الصيف، وبالعكس.

على أوراق شدة «السكات» (٨) الخاصة بوالدَي لودفيج، أرتور وهرمينه، كان هناك دائمًا نصف ملك على هذا الجانب من خط المنتصف المائل ونصف ملك آخر على الجانب الآخر. وبصورة مشابهة من وجهة نظر ما، تنعكس صورة لودفيج على طرفَي خط الاستواء، تارة كصناعي أقمشة مثل والده وتارة كميكانيكي سيارات. ومن هذا المنظور يصدر حفيف أشجار الأوكاليبتوس عند البئر قبل البوابة، ومياه البحيرة ترشح عند منتصف الأرض لتصير بحرًا، فليس عبثًا تسميتها بالمياه الجوفية، ثم إن إليزابت تشبه إليزابت.
تقول دوريس:
ـ ها هي الشمس تغرب الآن.
يقول جدها أرتور:
ـ وحتى عندما تصيرين امرأة مسنة ستجلسين هنا على الشاطئ لتراقبي كيف تنزلق الشمس وراء البحيرة.
الوطن. تسأل الفتاة:

ـ لماذا؟
تقول هرمينه، والدة لودفيج وجدة دوريس:
ـ لأن كل إنسان يرغب في رؤية الشمس أطول مدة ممكنة.
أحيانًا، إن كان المرء محظوظًا، قد يرى غطاء الطاولة من قماش الدامسكو الذي يحيط بالجبل ذي القمة المسطحة كطاولة. إنه وشاح من الضباب يكتسب عند الشروق لونًا ورديًّا ناعمًا. لقد ترك وراءه طقم المأدبة الفضي ورتب في حقائبه عوضًا عنه زينة شجرة الميلاد: اثنا عشر ملقطًا من الألومينيوم للشموع، كرات شجرة الميلاد، نجوم من القش، أشرطة قماشية فضية اللون وذروة الشجرة من الزجاج. اشتريت كلها عام ١٩٢٨ بمبلغ ١٤.٧٠ مارك. تسأل إليزابت الصغيرة بالإنجليزية: ـ ما هي النوازل الجليدية؟
لكنها ذكرت النوازل الجليدية بالألمانية. في ذلك اليوم الشتوي الذي أمضاه على ضفة البحيرة، دربت آنَّا، زوجته المستقبلية، ابنة أخته دوريس على التزلج على الجليد. تسأله ابنته الصغيرة إليزابت: ـ ما هو الثلج؟
هرمينه وأرتور، والداه.
هو اسمه لودفيج، البكر.
اسم أخته إليزابت، متزوجة من إرنست.
ابنتهما، ابنة أخته، اسمها دوريس.
ثم زوجته آنَّا.
والآن الأطفال: إليوت والصغيرة إليزابت المسماة على اسم أخته.
في آذار (مارس) ١٩٣٦، في نهاية الشتاء لحق لودفيج مع زوجته المستقبلية آنَّا بالشتاء عبر مضيق جبل طارق، شواطئ أوروبا يمينًا وشواطئ أفريقيا يسارًا، منتقلين من شتاء إلى شتاء، وعبر كل شيء. هنا لا يوجد ثلج في الشتاء، بل مطر فقط، كثير من المطر. وعلى الرغم من ذلك كان يبرد هنا أكثر بكثير مما برد هناك في الوطن. في عام ١٩٣٧ قدم والداه لزيارتهما لمدة أسبوعين. قالت الأم: «الطبيعة من حولكما هنا جميلة»، وعادت إلى وطنها. قال الأب: «يا لضياع ميراثك»، ورحل عائدًا مع الأم. لم تكن إليزابت الصغيرة قد ولدت بعد، ولا حتى إليوت، كان كلاهما لا يزالان يسبحان في قِدْر نقانق أبراهام. كان والداه هنا في زيارة. أرتور وهرمينه من مدينة جوبِن كانا في زيارة ابنهما لودفيج الذي هاجر إلى مدينة الكاب في جنوب أفريقيا، وها هما يعودان الآن إلى جوبن، وطنهما، من صيف إلى صيف، عبر مضيق جبل طارق، شواطئ أفريقيا يمينًا وشواطئ أوروبا يسارًا. يبقى لودفيج مع زوجته آنَّا واقفين مدة طويلة في الميناء. لا ينبس بكلمة، وكذلك زوجته لا تنبس بكلمة.
عندما جهد أرتور وهرمينه للحصول عام ١٩٣٩ على إذن سفر لمغادرة ألمانيا، باعا قطعة أرض لودفيج مع المشلح واللسان الخشبي بنصف سعر السوق للجار المهندس المعماري. ونظرًا إلى الكسب الذي حصل عليه المهندس

المعماري من الصفقة فقد دفع للإدارة المالية نسبة ٦٪ ضريبة ربح ناتج عن التخلص من اليهود.
ألح لودفيج أن يدفع والداه تكاليف الرحلة إليه من ثمن الأرض. ولكن إلى حين استلامهما جوازَي السفر كان لا بد من وضع المبلغ في حساب مجمَّد في البنك. وفي تلك المرحلة تقريبًا مُنعا من دخول الحدائق العامة، في حين تعلم إليوت نزول درجات البيت الثلاث إلى الحديقة من دون أن يمسك يد أمه. وزرع لودفيج بمعونة بستانيه، ذي الشعر الجعد الذي يصمد فيه قلم رصاص من دون أن يسقط، شجرة تين وأولى أشجار الأناناس الثلاث.
عندما دخلت هولندا الحرب كان جوازا سفر والدَي لودفيج جاهزين، لكن تحويل المبلغ إلى شركة الملاحة البحرية لم يعد ممكنًا. يعرف لودفيج أن الاسترخاء تحت أشجار الأوكاليبتوس لا يخلو من الخطر، لكنه يحب سماع حفيف أوراقها. وحتى عندما يهز البستاني رأسه يبقى قلم الرصاص صامدًا. يلفظ إليوت كلمته الأولى: «ماما» بالإنجليزية. آنَّا حامل للمرة الثانية.
بعد شهرين من صعود أرتور وهرمينه إلى عربة الغاز في كولمهوف قرب مدينة ليتسْمَن، وبعد أن خرجت عينا أرتور من محجريهما في أثناء اختناقه، وتغوطت هرمينه في النزع الأخير على قدمَي امرأة لم ترَها قَطّ، صودرت أملاكهما وما تبقى في ألمانيا من أملاك ابنهما لودفيج المهاجر. كما أفرغت جميع الحسابات المجمدة، وعُرضت محتويات البيت في المزاد العلني. وبذلك انتقلت جميع أملاك أرتور وهرمينه وما دفع مقابل قطعة أرض لودفيج والمشلح واللسان الخشبي إلى الرايخ الألماني، ممثلًا بوزير مالية الرايخ.
يطلق على المدينة «موترشتات»، «المدينة الأم» بالألمانية، وبالأفريقانية «مودرستات»، وبالإنجليزية «ماذر سيتي». قبل عيد الميلاد بقليل أصيب إرنست، صهر لودفيج ووالد دوريس، خلال أعمال السخرة في ورشة بناء الأوتوستراد بالتيفوئيد، ومات بعد بضعة أيام. وفي صبيحة الفصح كان على إليزابت ودوريس أن تسيرا على الطريق نفسه. كتبت إليزابت لأخيها لودفيج وهي لا تزال في القطار رسالة، قالت له فيها إن رحلتهما لن تكون طويلة. كان معها فتاحة رسائل من خشب الأبنوس قبضتها من القصدير، اشتُريت عام ١٩٢٧ بمبلغ ٢.٣٠ مارك. استغرقت رسالة لودفيج الجوابية من مدينة الكاب إلى وارسو ستة أسابيع ذهابًا ومثلها إيابًا، وقد وصلت غير مفتوحة. بعد ثلاثة أشهر ولدت إليزابت الصغيرة في «المدينة الأم» في أجمل نهاية للعالم.

البستاني

عندما توسعت قطعة الأرض، كلف صاحب البيت بستانيه بنزع السور وباقتلاع أشجار الصنوبر من القسم الأعلى من قطعة الأرض المجاورة سابقًا. نشر البستاني خشب الأشجار وحطَّبه ورتبه فوق بعضه في مستودع الخشب. استأصل الأجمات من القسم الأعلى من الأرض المضافة، وبدأ في أواخر الخريف هناك بحفر ثقوب لغرس أشجار مثمرة: خمس شجيرات تفاح، ثلاث شجيرات كرز وثلاث شجرات إجاص حسب تعليمات صاحب البيت. عند الحفر اصطدم البستاني بعد طبقة رقيقة من الدبَّال بطبقة الصخر المحلية، التي اخترقها مرورًا بطبقة الرمل المتموجة عند مجرى المياه الجوفية تحتها، حيث يتعرف الإنسان على عبور الريح قبل آلاف السنوات على سطح البحيرة، وترسيبها الرمال أخيرًا في المنطقة كلها فوق الطين الأزرق. حفر البستاني ثقوب الغرس إلى عمق ٨٠ سم، وملأها بالسماد النباتي كي تنمو أشجار الفاكهة بصورة جيدة. وأضاف إلى شبكة أنابيب المياه التي مددها تحت أرض القطعة الرئيسية أنبوبين فرعيين لسقاية أشجار الفاكهة. نثر البستاني السماد الطبيعي وحشَّ الأعشاب بين الأشجار اليافعة. وقبيل تشكُّل الصقيع الأول كان العشب قد ملأ المساحة العارية.

زوجة المهندس المعماري

أتعرف هذه؟ إذن.
كان لا بد من أن تضحك ثانية، على الرغم من كونها قد روت النكتة عدة مرات، والآخرون يضحكون على أي حال. إنها حقًّا تحب الضحك، ولشدة ضحكها في طفولتها كانت أحيانًا تسترسل فيه وكأنه قد تمسَّك بها، حسب وصف أبيها للحالة، فلا تتوقف مطلقًا، وكأنها لا تريد التخلي عنه، فتهتز وتهتز لاإراديًّا. حتى إن أختيها الأكبر منها سنًّا، اللتين كانتا مضطرتين إلى أخذ الصغيرة معهما حيثما ذهبتا، كانتا تضحكان عندما تحول عينيها وتلوق وجهها، أو عندما تتظاهر بقبول نشوق العطاس على أنه دواء شافٍ أو الفليفلة الحارة على أنها حلوة، فتعطس وتشخر وتبصق، مما يضحك الآخرين. أرادت أن تصبح راقصة على الحبال أو مروضة حيوانات في السيرك، لكنها لم تُسِر بذلك لأحد قَطُّ، ولا حتى لأبيها، المغولي الكبير، الذي كان في حقيقة الأمر قنصلًا كبيرًا، فأمضت حياتها كلها بين الضحك والسفر، بينما كبرت أختاها وسَمِنتا وصار عندهما أطفال، في حين بقيت هي المسافرة الأبدية. وعندما بلغت السن المناسبة لتتوازن على الحبل أو لتروض الأسود، رشحها المغولي الكبير، أي القنصل الكبير، لتعلم الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة، وقال المغولي لمروضة الحيوانات:
ـ إن الاختزال وحسن استخدام الآلة الكاتبة يعادلان إتقان ست لغات أجنبية، وهما مطلوبان في جميع أنحاء العالم.
وها هي تجلس الآن مع زوجها وبعض الأصدقاء في الشرفة خارج البيت، متحلقين حول وعاء مملوء بالسراطين التي اصطادتها بنفسها بعد الظهر من البحيرة، ثم غلتها في الماء إلى أن صارت حمراء اللون. تحمل بيدها ملقط سراطين ولا تتوقف عن الضحك. حتى قبل الحرب كانت تجلس هنا مع زوجها وبعض الجيران أو الأصدقاء، وكذلك في أثناء الحرب، حتى وقت متأخر من الليل، في الشرفة المطلة على البحيرة. وها هي لا تزال جالسة، وكم بودها أن تبقى جالسة هنا بكل بساطة إلى الأبد.
قبل تعرفها إلى زوجها الذي عملت عنده بعد إنهاء دورات الاختزال والضرب على الآلة الكاتبة، ما كانت لتصدق أبدًا أن الزواج قد يكون إحدى أكبر المغامرات. كان زوجها في ذلك الوقت لا يزال متزوجًا من امرأته الأولى، أي عنده كما يقولون زوجة وولد. لأول مرة في حياتها استعار البكاء طوال أماسي كثيرة متتالية الضحكَ من جسدها. مرت ثلاثة أرباع السنة حتى أعطاها رئيسها أول قبلة، ومرت ستة أشهر أخرى قبل أن يأخذا في التمازح حول حياة مشتركة، وبعد عدة أشهر أخرى، وفي أثناء إحدى النزهات إلى ضواحي

برلين وكان مستلقيًا إلى جانبها على العشب على ضفة هذه البحيرة الواسعة المتلألئة، قال فجأة:
ـ هنا يمكننا أن نعيش معًا، أليس كذلك؟
لم تفهم راقصة الحبل إلا في هذا اليوم، أن شخصًا يمتلك كثيرًا، بما في ذلك امرأة وولد، لا بد له أن يتوقف أولًا عن الجلوس ثم ينهض وينطلق، ليكتسب بعد مدة طويلة السرعة الكافية كي يتمكن أخيرًا من القفز، هذا إن قفز، وأن مثل هذا الشخص إذا قفز يريد أن يهبط في مكان ما، لا أن يبقى معلقًا في الهواء. في هذا اليوم فقط، عندما قال لها: «هنا يمكننا أن نعيش معًا، أليس كذلك؟»، وهي مستلقية على ظهرها تشاهد انحناء أشجار الصنوبر على خلفية السماء الزرقاء، ومنذ ذلك اليوم، صار جليًّا بالنسبة إليها أنه لن يهبط إلا عندها، إذا أبدت الرغبة في انتظاره على قطعة الأرض هذه تحديدًا، التي لا تبعد كثيرًا عن برلين. وعندها أجابت، ضاربة الآلة الكاتبة الشابة التي كانت تفضل أن تكون مسافرة أبدية:
ـ بلى.
ودُهشت.
استغرق الأمر نصف سنة آخر حتى جهز عقد الشراء فعليًّا وجعلها توقعه باسمها، كي لا يذهب نصف الأرض في ظروف عملية طلاقه القائمة إلى زوجته وابنهما المشترك. واستغرق الأمر كله مدة طويلة كانت قد خمنت طولها، ثم مثل تلك المدة في نطاق قدرتها على الاحتمال، إضافة إلى بعض الوقت فوق طاقتها على الاحتمال. عند توقيع عقد شراء الأرض على ضفة البحيرة كانت مرهقة جدًّا، إلى درجة أنها عند سماعها زوجها المستقبلي يصف قطعة الأرض بتعبير «الطافية الجليدية» تداعى إلى ذاكرتها ذلك الشتاء البرليني البعيد، عندما كانت طفلة وقفزت إلى سطح نهر شبريه المتجمد، من دون أن يلحظها أحد، ونتيجة الاهتزاز انكسر الجليد تحت قدميها، فصارت على طافية جليدية تسبح مع التيار. تارة تنزلق وتارة تتوازن، تشعر بالبرد بسبب حذائها المبلول. وأخيرًا بسبب محاولات الإمساك بالأيدي والسلالم والعصي الممدودة إليها، ولا سيما الخوف من أن يجرفها التيار خارج برلين قبل أن يتمكن أحد ما من إنقاذها، أنهكها كل ذلك إلى درجة أنها نامت وهي تقطر ماء بين ذراعَي الرجل الذي حملها إلى منزل أبوَيها.
بعد توقيع عقد الشراء حصل المهندس المعماري على الطلاق فعليًّا، وعقد قرانه عليها بعد فترة قصيرة، وبدأ ببناء البيت. استعادت الضحك، فأراد زوجها أن يحتفظ بهذا الضحك إلى الأبد بجعله جزءًا من البناء، فأخذ يلبي لها أغرب طلباتها: أمر بصنع عصفور صغير من الحديد ليوضع على سور البلكون مقابل غرفتهما، خبأ خزانة ثيابها وراء باب مزدوج ومزود بآلية سرية للفتح، فتح في الجدار إلى جانب سريرها فتحة على شكل صندوق صغير لوضع الهاتف، ووضع بياضات السريرين وراء ثلاثة أغطية خشبية على أطراف سريرها

الثلاثة، ولبَّس الأغطية الخشبية بحرير وردي اللون، زود كثيرًا من شبابيك البيت بألواح زجاجية ملونة، حفر على كرسيها إلى طاولة الطعام الحرفين الأولين من اسمها والحرفين الأولين من اسمه على كرسيه، أما أباجورات نوافذ الطابق الأرضي فإنها تفتح وتغلق من الداخل بذراع تدوير مخبأة، فإذا مر عابر غريب كانا يتسليان بإرعابه بالحركة الشبحية الهادئة للأباجورات السوداء. كان المعماري بين يديها مثل مارد خادم سحر لها البيت فضحكت. وكان بديهيًّا بالنسبة إليهما عدم التخطيط لغرفة للأطفال.

تابعت عملها في مكتب زوجها في برلين، ولكنهما كانا في نهاية الأسبوع يركبان السيارة إلى الضاحية دائمًا، ولأن زوجها سرعان ما بدأ يرسم مخططات هندسية لهذا أو ذاك من الجيران الراغبين ببناء بيوت على البحيرة ويشرف على التنفيذ، فقد تمددت فترات إقامتهما في «الطافية الجليدية» حسب تسمية زوجها المفضلة لقطعة الأرض، وتوسعت دائرة أصدقائهما. وعند أكل السراطين كان يبدأ هو أو هي بسرد الحكايات، وكلما ازدادت مهارتهما في الروي سهل على الثاني الدخول على الخط، وكأن الأمر محض مصادفة، لرفع درجة ضحك الضيوف بنهايات الحكايات المدروسة بعناية. «ألم نحكِ لكم بعد عن...؟»، فيخبران كيف هو... لها، وكيف هي... هو، وكيف هو بعد ذلك...، وكيف هي...، وكيف هو... لها، وكيف هي استغربت، وفكرت حرفيًّا أن...، وهو في النهاية...، وأخيرًا تقول: «يا للعجب»، وتهز رأسها بصمت لتملأ فراغ السرد الآتي لا محالة. يعاود زوجها السرد، تدخل على الخط، يضيف، ولكن لا بد لها هنا من أن تقول، فيوافقها. قبيل الوصول إلى ذروة الحكاية تبدأ هي بالضحك، ثم تأتي الخاتمة أخيرًا ويضحك الجميع، يضحكون ويضحكون، «هل لك بزجاجة بيرة أخرى؟»، «هل لك بكأس نبيذ أخرى؟»، «بسرور»، «ليس من أجلي»، «ربما كأس من الماء». هكذا كان المهندس المعماري وزوجته يمضيان الوقت في أمسيات كثيرة مع أصدقائهما.

تعرف زوجة المعماري منذ زواجها أن المغامرة في واقع الأمر هي تعريض النفس لما هو غريب عنها، وبرغبتها الفطرية بالحركة رمت بنفسها في خضم الاستقرار، وقد أثبتت قطعة الأرض على هذا الصعيد، نظرًا إلى موقعها على البحيرة، أنها القفص المناسب بالنسبة إليها. أختاها اللتان صارتا خلال هذه المدة أمَّين، تلاحقانها بنظراتهما من اللسان الخشبي وهي تنطلق سابحة متجاوزة خط مرور الباخرة إلى العمق، حتى بدا غطاء رأسها لا أكبر من رأس دبوس، بينما بقيتا مع أطفالهما على الشاطئ الضحل كي يلعبوا بأمان. تحب أختاها أكل السرطان، لكنهما تصيحان عندما تمسك أختهما الأصغر بالحيوانات المتخبطة من رقابها وترميها في الشبكة من دون قرف. وإذا اشتبكت حبال أرجوحة أبناء وبنات الأختين بأحد أغصان شجرة البلوط الضخمة، فإنها هي من يتسلق الشجرة معتمدة بيديها وقدميها على الشقوق في قشرة الشجرة، صاعدة بخفة لتركب الأغصان، متقدمة حتى نقطة اشتباك الحبال بالأغصان،

فتحلها بكل سهولة. تتأخر الأختان وأولادهما في النوم إلى أن تقرع ربة البيت الصنج داعية الجميع إلى الفطور، في حين تكون قد مشت ساعة على الأقل قبل الفطور. عندما تبدأ جولتها تكون قبضة البوابة الرئيسية منذَّاة في الصباحات الباردة، تنطلق صاعدة إلى الغابة ثم تتخذ اتجاه البحيرة عائدة عبر الحقول إلى البيت. كل صيف تزورها أختاها مع أولادهما في «الطافية الجليدية»، يمضون هناك بضعة أسابيع، يسبحون، يأكلون، تتبادل أختاها وصفات الطعام وتنظران إلى أختهما التي لا أولاد لها وهي تضحك. وعند استراحة الظهر تمددان جسديهما في الظل ليسترخيا في الدفء، إنهما تستريحان كما يقال، لكنهما تبدوان غالبًا، حتى بعد أن ترميا عنهما الأعباء كافة، لا كامرأتين ترتاحان، بل كأنهما في انتظار شيء ما، ولم يكن الانتظار سهلًا بالنسبة إليهما.
وهكذا تمضي السنون وكأنها سنة واحدة، لم يعد في بالها ما إذا كانت جائحة جعران أبار (مايو) قد وقعت عام سبعة وثلاثين أم بعد ذلك بسنة، إلا أنها ما زالت تتذكر حتى اليوم ذلك الصوت ووقعه في أذنَيها، عندما خرجت في جولة على الدراجة مع ابنة أختها، ودارت العجلتان فوق الجعران على الطريق الرملي الذي تحول إلى مساحة سوداء، ومن تحت العجلتين صدر صوت طقطقة، ما زالت تذكر هذا حتى الآن. جميع فصول الصيف تشبه بعضها. سواء كانت الحرارة ٣٨ أو ٣٩ وربما ٤٠ أيضًا، عندما بدأ باستخدام اللسان الخشبي التابع لقطعة أرض الجيران الخاوية، أو متى بنى زوجها جراج القارب بجوار اللسان الخشبي، هذا ما لم تعد تذكره بدقة الآن. مؤكد أنه لم يبنِ جراج القارب إلا بعد أن صارت الأرض المجاورة ملكهما، ولكن متى كانَ ذلك؟ السباحة صيفًا تلو الآخر، الاستلقاء تحت الشمس، وجمع توت السياج من طرف الغابة مقابل سور البيت، سماع البستاني، الخريف تلو الخريف، وهو يجمع أوراق الشجر المتساقطة، وتشمم رائحة احتراق الكومة المتعفنة، الانطلاق، الشتاء تلو الشتاء، على زلاجتيها كالمجنونة فوق الجليد، لتعود بأصابع حمراء من البرد، فتطوي الشراع اليدوي وتسرع إلى داخل البيت، فتدفئ يديها على المدفأة حتى تؤلماها، تخبئة البيض المسلوق، الفصح تلو الآخر، بين الورد والأزهار الجديدة من أجل بنات وأبناء أختيها. كله يشبه بعضه. يمكن أن يكون اليوم هو اليوم، لكنه يمكن أن يكون البارحة أو قبل عشرين سنة، وضحكها هو ضحك اليوم والأمس مثلما هو الضحك نفسه قبل عشرين سنة. يبدو لها الزمن متاحًا بين يديها مثل بيت يمكنها أن تدخل مرة إلى هذه الغرفة منه ومرة إلى تلك. أتعرف هذه النكتة؟ وبينما هي تمضي حياتها كلها ضاحكة، شاب شعرها الأشقر من دون أن تلحظ. إنها تجلس اليوم أو البارحة أو قبل عشرين سنة مع أصدقاء حول القدر الكبير الذي تسبح فيه السراطين التي اصطادتها بعد الظهر، بالإمساك بأعناقها على نحو آمن، ثم طبختها طويلًا إلى أنِ صارت حمراء. ليس من السهل أبدًا أن تأكل سرطانًا. عليك أولًا أن

تلوي رأسه حتى تقتلعه ثم تمتص العصير، ثم تنزع مِقصَّه وتستخرج اللحم منه بسيخ صغير. لكن أفضل ما في السرطان هو اللحم المستخرج من الذنب، وهو ما يُسمى «اللب». قبل أن يأكله الإنسان لا بد من أن يبعد الأحشاء جانبًا.
قالت: «تتحقق الدعابة عندما يضحك الإنسان في كل الأحوال»، وذلك بينما كانت تمصُّ لب المقص، بعد لحظات قليلة من حديث مخرج سينمائي صديق عن أنهم يجدون صعوبة كبيرة في قسم المكياج السينمائي في تحقيق المكياج المناسب للممثلين الآريين الذين سيؤدون أدوار المرابي اليهودي إبلماير وأجَرائه بوصفهم ساميين، علمًا بأنهم في أثناء تصوير البروفات قد بدوا ساميين أصليين. ثم تنهد المخرج. علق زوجها:
ـ نأمل لكم النجاح.
وعلقت هي:
ـ تتحقق الدعابة عندما يضحك الإنسان في كل الأحوال.
في أمسية أخرى من إحدى تلك الأمسيات الصيفية، في سنة أخرى من السنوات العشرين الماضية، قالت: «تتحقق الدعابة عندما يضحك الإنسان في كل الأحوال»، وكسرت بين أصابعها درع السرطان عندما كان زوجها يحكي لأصدقاء أن عليه السفر إلى الغربية لأنه مضطر إلى أن يشتري، بماله الخاص، من هناك براغي من أجل الجمهورية الاشتراكية الفتية، إذ طلب منه حرفيًّا التقيد بمواعيد تنفيذ المخطط، وإنهاء العمارة التي يبنيها حاليًّا لمناسبة الاحتفال بالعيد الثالث لقيام الجمهورية، وأردف:
ـ ألا يوجد براغي في ألمانيا الشرقية كلها؟ هذا لا يصدق!
فعلقت:
ـ تتحقق الدعابة عندما يضحك الإنسان في كل الأحوال.
في إحدى أمسيات الصيف من تلك السنوات العشرين الماضية، حكى زوجها لأحد الضيوف عن تحويل الروس حديقته في نهاية الحرب إلى مرعى للخيول التي داست كل شيء، حتى إنه رأى البستاني يبكي آنذاك. روى كل ذلك، في حين لم تعلق زوجته بكلمة وهي تمسح يديها بالمنديل. والصديق الذي لم يكن بوسعه إطلاق حكم إلا على ما روي له استند فقط إلى ما روي، وقال بدوره: «تتحقق الدعابة عندما يضحك الإنسان في كل الأحوال»، واصطاد في خلال قوله ذلك سرطانًا آخر من القدر. لولا وجود تلك الليلة التي صمم فيها زوجها الخزانة المتحركة لها خصوصًا، لكانت ما زالت تعتقد حتى الآن بأن زوجها، حينذاك عندما دفع إليها عقد الشراء لتوقعه، قد اشترى قطعة من الأبدية، وأن هذه الأبدية خالية من أي ثقب حيثما كان.
عندما يأتي أحد على ذكر الحرب، فإنها ما زالت تفكر حتى اليوم بتلك الحرب أولًا التي شنها جسمها ضدها، حينذاك تحديدًا عندما سقطت أولى القنابل فوق ألمانيا. فعلى الرغم من الشح المتزايد في المواد الغذائية، سمن جسمها آنذاك فجأة وبصورة تخالف العقل تمامًا، في حين أن من كانوا بُدُنًا، مثل

أختيها، قد نحفوا ثم نحلوا إلى أن هزلوا بسبب الجوع والقلق والانفعال. استسلم الجيش السادس أمام ستالينجراد، وفي الصباح التالي ارتفعت حرارتها بحيث انبثق العرق كقطرات دقيقة مشكلة شاربًا ما بين أنفها وشفتها، كان تعرقها يحرجها، ومسحه كان يحرجها أكثر. تقدم الروس نحو بولونيا، فصار يغمى عليها عدة مرات في أثناء اليوم، بحيث باتت تتمسك بحواف الطاولة ومقابض الأبواب كي لا تهوي. وأخيرًا نزل الحلفاء على شواطئ النورماندي، فعاد حتى البكاء إلى جسدها واحتله وأبى أن ينسحب، كمؤمن منسي منذ زمن طويل يريد محو ذنب لا يدري عنه شيئًا. وهي التي كانت ذات ملامح صبيانية دائمًا باتت تقف كل صباح أمام المرآة، تتعرق، تتمسك بحافة المغسلة كي لا تسقط أرضًا، تمسح دموعها متجنبة النظر إلى وجهها المستدير، حليبي البشرة، الذي لا تشاركه في أي ذكريات، إلى درجة أن بدت لها ألواح الزجاج الملون أكثر ألفة، تلك الألواح في النافذتين إلى يمين ويسار المرآة التي ركبها زوجها لها بكل بساطة تلبية لرغبتها.

لقد ساءت حالها جدًّا في تلك الآونة، إلى حد أن اضطرت إلى أن ترجو ابنة أختها لتأتي إليها كي تساعدها في الأعمال المنزلية، بينما كان زوجها منشغلًا بإنهاء أعمال مكتبه في برلين وحزم رسوماته ومخططاته والبحث لها عن مخبأ آمن ومقاوم للحريق. كم كان مناسبًا وجود الهاتف في تلك الزاوية الجدارية إلى جانب سريرها، فغالبًا ما كانت تستلقي معظم النهار، وبينما كانت تضع السماعة على أذنها وتعرف من حديث زوجها مَن دُفن تحت الأنقاض وأي بناء انهار وكم ضاق المكان في الملجأ تحت، كانت تنظر إلى ريشات العصفور الصغير الملونة المنحوتة في حديد سور البلكون، وترى وراء العصفور أغصان الأشجار العارية، وترى من خلال الأغصان بحر ماركِن المتلألئ. لم ترسل ابنة أختها إلى أقربائها في الغرب إلا بعد معركة مرتفعات زيلو، كي تحميها من الالتقاء بالجحافل السلافية. أما هي فقد رتبت أمورها، بآخر ما تبقى لديها من طعام وماء، في الخزانة المتحركة وراء الباب المزدوج. ثم وصل الروس.

لا تريد أن تخطر ببالها تلك الكلمة التي ناداها بها، تلك الكلمة غير المعقولة التي حفر بها ثقبًا في أبديتها. بالنسبة إلى جسمها الذي كان قد فقد خصوبته في تلك المرحلة، كان يعرف أن هذه الكلمة تجردها من سلطتها عليه، فجذبها إليه بكل قوة، ولمدة تعادل تقريبًا زمن ولادة خنق الروسي ضحك جسدها الذي كان يعوقه. في تلك الليلة، في الخزانة المخبأة التي صممها زوجها لها خصوصًا، عندما كانت لا تزال أميرة سيرك، وتلبية لرغبتها. في تلك الليلة التحقت أخيرًا بجبهة العدو. لم يتمكن زوجها من الوصول إليها إلا بعد سقوط برلين عاصمة الرايخ، فوجد أمامه حديقة مُداسة مخربة وبستانيًّا يبكي الخراب. شاطرته زوجته نصف رغيف الخبز الذي تركه لها الروسي.

أتعرف هذه النكتة؟ هناك موسيقي في جولة عمل، وعلى زوجته التي بلغت

ذروة حملها أن تخبره عندما ينزل المولود. وكلمة السر بينهما هي: «بطيخة». يجلس الموسيقي على المنصة ويعزف، وذات مساء يهمس إليه أحد زملائه من الكالوس الجانبي: «بطيخة، بطيخة، بطيخة، اثنتان بعود وواحدة بلا!». ثمة أمور تستدعي الضحك ببساطة دائمًا. هذه النكتة تنجح دائمًا، الجميع يضحكون لها، المهندس المعماري يضحك دائمًا وكذلك زوجته التي روتها بنفسها، والزوار يضحكون أيضًا. موسيقي، جولة عمل، بطيخة، بعود وبلا. قبل خمس عشرة سنة تقريبًا كان الممثل ليتكِه أحد ضيوفهم، وكان متزوجًا بإحدى نجمات الأوبرا، ويسكن عند نهاية الطريق الرملي، أضاف إلى النكتة دلالة بأنه مثَّل بيديه ثديين ممتلئين، مستشهدًا من أوبرا «الأرملة المرحة» قولها: «ميلوِن ـ آه-مليوِن» (٩). موسيقي، جولة عمل، بطيخة، بعود وبلا، كانت مناسبة حتى في أثناء الحرب، عندما أخبرهما جارهما مستورد البن والشاي أن ابنة اللحام قد وضعت توأمًا منذ قليل، على الرغم من أن زوجها لم يحصل على إجازة منذ سنتين من الجبهة الشرقية. موسيقي، جولة عمل، بطيخة، بعود وبلا. قالت زوجة المهندس المعماري اليوم لمدير مصنع العجلات وهو صديق لزوجها:

ـ استغربتُ جدًّا أن يطلب هتلر منا، نحن النساء، أن ننجب أطفالًا للدولة، فنحن لسنا آلات.

وعلق زوجها:

ـ زوجتي كانت بطرقها الخاصة مفيدة جدًّا في المقاومة.

فضحك المدير والمهندس نفسه وزوجته أيضًا.

ومنذ أن حفر الروسي ثقبًا في أبديتها قرابة نهاية الحرب، أي منذ ست سنوات، والزمن يتسرب من هذا الثقب من دون توقف. ولكن لأنه زمن صعب فحسب، يتبدى الأمر كلحظة ارتخاء تاريخية. ولأنه زمن صعب فحسب، بحيث تؤجل لحظة الهروب منه، فإن زوجة المهندس المعماري ما زالت تجلس طوال ست سنوات بعد الحرب في شرفتها أمام قدر مملوء بالسراطين، تخدم الضيوف ويعلو صوت ضحكها على الجميع وهي تروي لضيوفها النهايات المدروسة لنكاتها وحكاياتها، وهي تنظر إلى البحيرة التي جرى تأميمها باسم الشعب. ينسرب الزمن، بينما تودع زوجة المهندس المعماري أصدقاءها حتى البوابة مستندة إلى ذراع زوجها، وملوحة لهم حتى يبتلعهم الظلام. ينسرب الزمن عندما يعود الزوجان إلى بيتهما لينقلا الصحون الممتلئة بقشور السراطين بعضها فوق بعض إلى المطبخ. ينسرب الزمن بينما تقول له إنها متعبة، ويقول لها إنه سيدخن سيجارة أخرى في الشرفة. ينسرب الزمن وهي تصعد الدَّرَج إلى الطابق الثاني، تخلع ثيابها في غرفتها وترتدي المعطف الحريري، وتدخل إلى الحمَّام حيث ألواح الزجاج الملون في النوافذ إلى يمين ويسار المرآة أشد سوادًا من الزجاج الآخر في الليل. ينسرب الزمن في أثناء

جلوس المرأة على حافة سريرها لتدهن ساقيها بزيت الكافور وصدرها بمعجون النعناع. ينسرب الزمن وهي تقول عبر الباب نصف المفتوح: «طابت ليلتك»، لزوجها الذي ما زال يدخن سيجارته الأخيرة في الشرفة تحت. ينسرب الزمن وينسرب بينما تعلق معطفها الحريري ذا اللون الكريمي على المشجب في القسم المسطح من الخزانة المتحركة. ينسرب وينسرب بينما تستلقي وتغفو. النهاية. قريبًا ستسكن في شقة من غرفتين في برلين الغربية، ولاحقًا في دار للمسنين قرب محطة مترو حديقة الحيوانات. ومنذ هروبها إلى الغربية وحتى نهاية حياتها ستحتفظ في حقيبة يدها بكل ما يحتاج إليه المرء في الحالات الطارئة، مثل الشكالات المكتبية والمطاطات والطوابع البريدية وأوراق التدوين وأقلام الرصاص. ومنحت في وصيتها قطعة الأرض على البحيرة والبيت الذي سيعبق إلى الأبد برائحة الكافور والنعناع، هذا البيت الذي ما عاد بوسعها دخوله من دون أن تتعرض للاعتقال، منحته لبنات أختيها ولزوجات أبناء أختيها، أي أنها لم تمنح شيئًا لرجل.

البستاني

حسب مشروعات صاحب البيت سيقام في الربيع منحل يتسع لاثنتي عشرة أسرة من النحل، موجهًا نحو الجنوب، على الأرض الجديدة المضافة إلى أرضه، إلى جانب أشجار الفواكه، بهدف رفع محصول الأشجار وللحصول في الوقت نفسه على غنيمة من العسل. إلى جانب غرفة العناية بالنحل توجد غرفة أخرى لاستخراج العسل. ولأنه تبيَّن أن البستاني ماهر جدًّا في شؤون تربية النحل، فسيكرس الوقت الفائض عن أعمال البستنة لخدمة النحل. وسرعان ما رتب لنفسه سريرًا مؤقتًا في غرفة استخراج العسل، ثم انتقل إليها بصورة كاملة، بإذن من صاحب البيت.
يحكي عمال السخرة البولونيون في القرية أن حشرة البطاطا كانت حينها قد تخطت نهر الأودَر وهي على وشك اختراق بولونيا. كان البستاني صيفًا يسقي حوض الزهور وشجرة السرو المائلة باتجاه البيت عند الدرب الرملي، وكذلك الورد عند الشرفة المطلة على البحيرة، والأجمة الفُرْسيتية، والليلك والورد الخلنجي المحيط بالمرج الكبير، يسقيها مرتين يوميًّا، مرة في الصباح الباكر ومرة مع بداية الغسق. عوَّد نفسه تدخين السيجار، كي يبعد النحل عنه بالدخان عندما يجلس على عتبة المنحل ليرتاح. أما في الخريف فيجمع الأوراق المتساقطة من شجرة البلوط الكبيرة ويحرقها، ينشر أغصان الصنوبر الجافة ويحطِّبها، ثم يرتبها فوق بعضها في مستودع الخشب.

الفتاة

لم يعرف أحد الآن أنها موجودة. كل ما حولها أسود، وهي بؤرة هذه الحجرة السوداء. ولكن ألا يوجد حتى شق صغير يسقط منه النور لينقذ حياتها، وعدم وجوده جعلها لا تميز نفسها من الظلمة بعد. كم بودها الحصول على دليل على أنها موجودة، ولكن ليس ثمة دليل. إنها دوريس، ابنة إرنست وإليزابت، في الثانية عشرة من عمرها وقد ولدت في جوبن. ترى من تخص هذه الكلمات الآن في هذه الظلمة؟ وفيما تجلس على الصندوق الصغير وركبتاها تلامسان الجدار المقابل، وبينما تمد ساقيها تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار كي لا تتخدرا، يمضي الوقت. ربما كان الوقت يمضي. وقت ينأى أبعد فأبعد دائمًا عن الفتاة التي ربما كانتها ذات يوم: دوريس، ابنة إرنست وإليزابت، في الثانية عشرة من عمرها، مولودة في جوبن. لم يعد هناك أحد يمكن أن يخبرها ما إذا كانت هذه الكلمات بلا صاحب، أم أنها قد ضلت طريقها مصادفة إلى هذه الحجرة، إلى هذا الرأس، أو ما إذا كانت تخصها حقًّا. لقد انسل الوقت بينها وبين أبوَيها، بينها وبين بقية الناس، لقد انتزعها الوقت معه وحجزها في هذه الحجرة المظلمة. لم يعد هناك ما هو ملون سوى ما تتذكره في وسط هذه الظلمة المحيطة بها، وهي مركزها، ثمة ذكريات ملونة في رأسها الذي نسيه النور، ذكريات تتعلق بشخص كانته ذات يوم. ربما كانت. من كانت؟ لمن كان رأسها؟ من تخص ذكرياتها الآن؟ هل يستمر مضي الوقت الأسود دائمًا، حتى إذا كان الإنسان جالسًا فحسب، هل يستمر مضي الوقت ويجرف معه طفلًا متحجرًا؟

جبل الخيار والقرن الأسود، كيبرلينج، هوفْتِه، نَكْليجر وبولْتسِنبِرج. وجبل مينْداك أيضًا. عندما رفعها خالها آنذاك وأجلسها على حدبة شجرة الصنوبر، خُيِّل إليها أنها قادرة حقًّا من هذا الارتفاع على تمييز الجبال الموجودة كافة تحت الماء التي ذكر لها البستاني أسماءها وما زالت تتذكرها حتى اليوم. على أعلى مرتفع كان ينتصب برج كنيسة المدينة الغارقة، تشرئب ذروته نحو الأعلى حتى يكاد «ديك الطقس» (١٠) يصطدم بأمواج البحيرة. وهناك في القاع حيث الماء ساكن تمامًا، هناك في شوارع وساحات المدينة، كان بمقدورها إن زرَّت عينيها أن ترى حتى الناس وهم يتجولون أو يجلسون أو يقفون مستندين إلى مكان ما، ورأت من خلال سطح البحيرة المتلألئ التزاحم الصامت لجميع السكان الذين غرقوا مع مدينتهم، وكانوا يتحركون بصورة طبيعية من دون أن يضطروا إلى التنفس، كانوا يتحركون في الماء مثلما كانوا يتحركون في الحياة، يقفون ويجلسون كما لو كانوا على اليابسة.

كانت قد قرفصت على فرع الشجرة متمسكة بجذعها كثير القشور، ورأت من هناك كيف كان السمك يسبح في السماء الغارقة فوق المدينة. بعد أن أنزلها خالها ثانية عن الشجرة كانت يداها دبقتين جدًّا من الصمغ، فتناول خالها رملًا وفركه به حتى أزاله.
بينما كانت الفتاة تجلس في حجرتها السوداء محاولة من وقت لآخر أن تنهض، على الرغم مما يسببه ذلك من اصطدام رأسها بسقف المخبأ، وبينما كانت تفتح عينيها إلى أقصى ما يمكن ولا تستطيع مع ذلك أن ترى حتى الجدران، وبينما كانت الظلمة واسعة بحيث لا تدرك الفتاة حدودها، كانت تتراءى في رأسها ذكريات عن أيام كان حقل النظر كله فيها مملوءًا بالألوان حتى أطرافه. غيوم، سماء وأوراق، أوراق بلوط وأوراق صفصاف متدلية نحو الأسفل مثل الشعر، تربة سوداء بين أصابع القدمين، إبر صنوبر يابسة وحشائش، أكواز صنوبر، قشور أشجار مشققة، غيوم، سماء وأوراق، سماء وماء يترقرق عاكسًا صورة الشمس فيه، ماء ظليل تحت اللسان الخشبي تراه من خلال الألواح، عندما تستلقي على بطنها فوق الألواح الساخنة كي تجفف نفسها بعد السباحة. بعد أن سافر خالها أخذها جدها معه طوال صيفين في قاربه الشراعي. لا شك في أن قارب الجد ما زال حتى الآن في مرفأ القرية، في المبيت الشتوي منذ أربع سنوات. الآن، من دون أن تعرف ما إذا كان الوقت في الخارج نهارًا أم ليلًا، تمسك الفتاة اليد التي يمدها الجد لها، تنتقل من اللسان الخشبي إلى حافة القارب، وترى جدها يحل عقدة الحبل الذي يربط القارب إلى اللسان الخشبي ويرمي الحبل في القارب.
نوافذ البناء كلها في شارع نوفوليبي، حيث اختبأت الفتاة، ما زالت مفتوحة. فحتى قبل بضعة أيام كانت الغرف مملوءة بالناس الذين أرادوا أن يتنفسوا، أما الآن فكل شيء ساكن تمامًا. سكان الغرف غادروا، وحتى تحت في الشارع لم يعد يمشي أحد، لا أحد يجر عربة، لا أحد يكلم أحدًا أو يصرخ أو يبكي، حتى صوت الريح لم يعد يُسمع، فلا نافذة تُخبط ولا باب يُصفق. وفيما تجلس الفتاة في حجرتها السوداء، وتحرك ركبتيها تارة يمينًا وتارة يسارًا، وفيما كل شيء ساكن في البناء وراء الحجرة، وكل شيء ساكن أيضًا تحت في الطريق وراء البناء، وكل شيء ساكن تمامًا وراء هذا الطريق في شوارع الحي، فإن الفتاة تسمع كل ما كان موجودًا ذات مرة: حفيف أوراق الأشجار، خرير الأمواج، صفير الباخرة، اصطدام المجاديف بالماء، طرطقة العمال من البناء المجاور، خفق الأشرعة. يتحرك الإنسان مع الأصوات مبتعدًا عن سلم «دو» الكبير، متجاوزًا سلم «صول» الكبير، و«ري» الكبير، و«لا» الكبير، و«مي» الكبير، و«سي» الكبير، حتى يصل إلى «فا دييز» الكبير، منتقلًا من تقاطع إلى تقاطع باستمرار. لكن الرجوع من «فا دييز» إلى «دو» لا يستغرق أكثر من خطوة قصيرة. فمنذ العزف على جميع المفاتيح البيضاء إلى العزف على جميع المفاتيح السوداء وهو الطريق الأكثر قصرًا قبيل أن يصل الإنسان

مجددًا إلى وقع صوت سلم دو الكبير السهل حتى على الأطفال، يزدحم الطريق بتقاطعات فحسب. هكذا شرح لها خالها الأمر قبل أن يسافر إلى جنوب أفريقيا، وهكذا تصطدم دوريس الآن في هذا السكون التام والخواء بذكراها عن ذلك الوقت حين كان كل شيء موجودًا.
لم يعد أمامها الآن سوى معبر صغير. إما أن تموت جوعًا هنا في مخبئها، وإما أن يجدوها ويرحِّلوها. لا أحد من أولئك الذين عرفوا مَن هي ما زال يعرف أنها موجودة، وهذا ما يجعل المعبر ضيقًا جدًّا. خطوة فخطوة وصلت إلى هذا الوضع، إلى النهاية تقريبًا، أي أنه كان لا بد للطريق من بداية، وعند هذه البداية كان ابتعادها عن الحياة ضيقًا بما يماثل ضيق ابتعادها عن الموت الآن. لا بد من أن البداية كانت تبدو كالحياة تقريبًا، لا بد أنها كانت في مكان ما من القلب، ولكن من دون أن تنجلي كجزء أول لهذا الطريق الذي باتت تعرف الآن فقط إلى أين يؤدي. «عندما تنمو الصفصافة وتدغدغ الأسماك بشعرها ستبقين دائمًا زائرة في هذا المكان، عند أبناء وبنات خالك، وستتذكرين أنك قد ساعدت في غرس هذه الصفصافة». أكانت الحياة سليمة آنذاك؟ عندما تفكر بخالها لودفيج تراه دائمًا حاملًا المجراف بيده عند شاطئ البحيرة. وعندما تفكر بخطيبته آنَّا، تخطر ببالها الجملة التي كانت تردد على مسمعها دائمًا: «خففي وزنك!» قبل أن تحملها، وكأن الفتاة قادرة بالتفكير بالأمر فحسب أن تخفف من وزنها. وعندما ألقى جدها نظرة على المناشف في المشلح، وهي من إنتاج معمله، ثم أغلق الباب وترك المفتاح في القفل للمالك القادم، فكرت بقاربه الشراعي الذي بقي في ذاك الصيف لأول مرة على البر. في الخريف وضعها أبواها عند عمة لها في برلين كي يبعداها عن مضايقات زميلاتها في المدرسة بشأن دمها اليهودي. وطوال سنتين بعد قداس الأحد في كنيسة ساحة هووِّنتسولرن كانت تجلس إلى نافذة مطبخ هذه العمة وتكتب رسالة إلى أبوَيها. لكنها لم تكتب رسائل بين الاثنين والسبت كي توفر رسوم البريد والمغلفات. في آخر وجبة طعام مشتركة مع جديها اللذين جرى ترحيلهما من شارع لفِتسو في حي موابيت في برلين طبخت العمة فليفلة خضراء حلوة. بمناسبة عيد رأس السنة الميلادية أهدتها صديقتها طاسة صغيرة فيها قطن وعدس، وإذا أبقى الإنسان القطن رطبًا قليلًا فستنمو من العدس غابة صغيرة. ترددت عند حملة جمع الصوف (١١) في شهر كانون الثاني (يناير) في أن تقدم شالها الصغير إضافة إلى القبعات والشال الكبير، إذ بإمكانها أن تلفه حول رأسها مثل عمامة فتبقى أذناها على الأقل دافئتين. ولكن ماذا إن رأى أحدهم ذلك؟ عندما تأخرت رحلة الهجرة إلى البرازيل باتت تذهب إلى المدرسة بدرجة برودة ١٢ تحت الصفر بحذاء عادي بدلًا من الجزمة، إيثارًا للسلامة وكي تستعد لبولونيا، فلا شك أن الطقس هناك أبرد من برلين. كتبت لها أمها أن عليها أن تحرق آخر رسالة

من أبيها بسبب خطر العدوى. والقانون الذي قد يسمح لها بركوب حافلة الترام عائدة إلى المنزل بعد دفن والدها لم يصدر في الوقت المناسب. وقطعة الأرض المطلة على البحيرة والتي كانت ملكًا لخالها، وحيث أمضت صيفين متتاليين مع جديها بعد هجرة خالها، تقع في منتصف المسافة تمامًا بين برلين وجوبن. أكانت دوريس ابنة إرنست وإليزابت ذات الاثنتي عشرة سنة والمولودة في جوبن، في هذا الموضع من الطريق قد ابتعدت نصف المسافة عن حياتها، أم أكثر، أم أقل؟

لا بد لها من أن تبول الآن، ولكن لا يجوز لها أن تغادر الحجرة، هذا ما قالته لها والدتها قبل أن تذهب إلى العمل. ووالدتها لن تعود من العمل، ففي خلال غيابها رحل جميع سكان البناء، جميع سكان العمارة في شارع نوفوليبي، وجميع سكان الحي الذي تقع فيه العمارة. لا شك في أن الحي قد صار مكانًا محظورًا، فقد مضى وقت طويل على السكون المطبق. ولكن ما دامت هذه الجملة ذات مفعول، يبقى اسمها دوريس وتبقى على قيد الوجود: دوريس ابنة إرنست وإليزابت في الثانية عشرة من عمرها ومولودة في جوبن. وها هي تنهض إذن، تصدم رأسها بسقف مخبئها، وتحاول أن تبول من دون أن تبلل اللوح الخشبي الذي تجلس عليه.

سيينا وبانْسكا وتفارْدا. كروخْمالنا وخلودْنا وجرجيبوفْسكا. أوجْرودوفا ولنْسنر ونوفوليبي (١٢) حيث اختبأت الفتاة، ثم كارمليكا وجِزْيا وتسامنهوفا وميلا.

إذا مات الإنسان وهو في الثانية عشرة، فهل يكون حتى عندها قد بلغ العمر في وقت أقصر؟ كل شيء أخذ ينقص باستمرار، ودائمًا كان عليهم أن يتركوا وراءهم مزيدًا ومزيدًا من الحاجيات أو تؤخذ منهم، وكأنهم قد باتوا في حالة من الضعف لا تساعدهم على حمل كل ما هو ضروري للحياة، وكأن هناك مَن يريد بهذا التخفف أن يقسرهم على دخول العمر. غطاءان صوفيان، لا وسائد أو لُحف محشوة بريش النعام، زوادة لخمسة أيام، ساعة يد، حقيبة يد، لا وثائق. هكذا دخلت إلى الغيتو ممسكة بيد أمها، وحتى هذا الجزء من المدينة الذي دخلتاه كان قد تخفف من أشياء كثيرة. لم يوجد هناك أشجار ولا حديقة عامة ولا نهر ولا سيارات ولا ترام كهربائي، بل بعض الشوارع فقط بحيث لا يكفي وقت تلاوة «أبانا الذي في السماوات» لذكر أسمائها. وما كان لا يزال يسمى «عالمًا» كان يمكن لطفل صغير أن يقطعه مشيًا. وكلما اقتربت النهاية ازداد تقلص هذا العالم. في البداية أُفرغ الغيتو الصغير ثم أُلغي، والآن جاء دور الجزء الجنوبي من الغيتو الكبير، ولا شك سرعان ما سيأتي دور البقية. عندما كانت تتزحلق على الأرضية الخشبية عبر الغرفة كان والدها يقول لها دائمًا: «لا تكوني شقية هكذا!». أما هنا الآن فقد كانت طفلة شقية. لكن صفة «شقي» تعني هنا: ألا تذهب بدلًا من فتاة أخرى، ألا ترفع رأسها من أجل التعداد، أن تدعي الموت بدلًا من أن تعلن جاهزيتها للموت، أن تبغي

النجاة بلا شرب ولا أكل. لم يسبق لها قَطّ أن كانت بمثل هذه الشقاوة، كما هي عليه في هذه الحجرة الضئيلة حيث لا تتكلم ولا تغني ولا تستطيع أن تقف، وعندما تجلس تصطدم ركبتاها بالجدار. إنها دوريس، ابنة إرنست وإليزابت في الثانية عشرة مولودة في جوبن، طفلة شقية، عجوز صماء عمياء غير قادرة على تحريك أعضائها إلا بصعوبة.

قال لها أبوها:

ـ في البرازيل، ستحتاجين إلى قبعة لتحميك من الشمس.

ـ هل توجد بحيرات في البرازيل؟

ـ طبعًا.

ـ وهل يوجد في البرازيل أشجار؟

ـ أطول من الأشجار هنا بمرتين.

ـ وماذا بشأن البيانو؟

قال الوالد:

ـ لم يعد له مكان.

وأغلق باب الحاوية حيث وُضعت طاولة كتابتها، وعدد من الحقائب المملوءة بالبياضات والألبسة، وسريرها وفراشها وجميع كتبها، ثم قفله. لا شك أن هذه الحاوية ما زالت واقفة في حوش إحدى شركات النقل والشحن في جوبن، ولكن منذئذ انقضى وقت طويل، بحيث إن سريرها، إذا وصلت إلى البرازيل، سيكون صغيرًا جدًّا، وقمصانها وجواربها وتنانيرها وبلوزاتها ستكون قد صغرت عدة نمر. مع إغلاق الحاوية من أجل الهجرة إلى البرازيل كان منزلهم في جوبن قد انتهى أمره، ومن ثَمَّ أُرسلت الفتاة إلى برلين، وعنوان والديها الذي كانت توجه إليه رسائل أيام الأحد تبدل عدة مرات، من منطقة فقيرة في جوبن إلى أخرى أكثر فقرًا. ولكن ما دام الأمل قائمًا بالحصول على موافقة الهجرة، لم يصعب عليها وعلى أبوَيها التخلي عن السجادة ذات الذكريات في أثناء حزم الحاجيات للسفر إلى البرازيل. عندما تلقى والدها الاستدعاء إلى عمل السخرة في بناء الأوتوستراد، كان البراد المصنوع خاصة للمناطق الاستوائية لا يزال واقفًا في الحاوية في حوش شركة النقل والشحن. ولكن ثبت إثر وفاة الوالد أن حَزْم حياتهم اليومية الجوبنية لم يكن سوى استباق لحزمهم شخصيًّا، وإذا أخذ الإنسان الحالتين معًا فالأمر إذن نهائي.

إن المكان الوحيد الذي بقي منذئذ يشبه نفسه والذي بمقدور الفتاة انطلاقًا من هنا، من حجرتها المظلمة، أن تصف كيف يبدو في هذه الساعة، هو قطعة أرض الخال لودفيج. ربما كان تذكرها له، بدقة أكبر من تذكرها أي مكان آخر، مرتبطًا بنهاية الأسبوع، وكذلك بالصيفين اللذين أمضتهما هناك. تستطيع في أرض الخال لودفيج أن تتحرك دائمًا من شجرة إلى شجرة وأن تختبئ وراء الأجمات، أن تلقي نظرة على البحيرة موقنة أنها ما زالت هناك. وما دامت لا تزال تعرف أي شيء في هذا العالم، فإنها لا تزال في الوطن وليس في

الغربة.
ما جرى في حقيقة الأمر، قبل عدة أسابيع، في ذلك اليوم من حزيران (يونيو)، حين ذهبت أمها إلى شارع جِزْيا لتبيع ساعة اليد في السوق السوداء، في حين اكتشفت هي عند تاجر في شارع كارمليكا كتابًا طالما منعتها أمها من قراءته، وهو رواية بعنوان «القديس جونتر أو بلا وطن»، في ذلك اليوم تحديدًا وهي واقفة في شارع كارمليكا محافظة على مكانها بصلابة في الزحام، وهي تقلب صفحات الكتاب سعيدة، لكون صاحب المتجر المتنقل لا طاقة له على منعها من القراءة من دون ثمن، في ذلك اليوم تحديدًا أفرغت حاجيات بيتها الجوبِني بطريقة معكوسة لحزمها من قبل أمها وأبيها قبل سنتين في الحاوية، تحضيرًا للهجرة إلى البرازيل، من قبل السيد كارل بفلوجر ومرافقه باوشل من الشرطة الجنائية، وعرضت موجودات الحاوية للمزاد العلني. في ذلك اليوم بالتحديد الذي طال فيه وقوفها في شارع كارمليكا وهي تقرأ لأنها لا تملك نقودًا لشراء الكتاب، ولأنها في أثناء قراءتها لم تكن مضطرة إلى التفكير بالفليفلة الخضراء المحشوة، أو ببساطة بقطعة خبز مدهونة بالزبدة ومرشوشة بالملح، في ذلك اليوم تحديدًا من حزيران (يونيو)، بعد نحو شهرين من وصولها إلى وارسو، بيع في المزاد في جوبن، من دون أن تعلم، سرير طفولتها تحت الرقم ٤٨ بمبلغ ٢٠ ماركًا للسيدة فارنيتْشك من شارع نويشتتر رقم ١٧، وبيع إبريق الكاكاو تحت الرقم ١١٩ للسيد شولتس من شارع البريد العتيق رقم ٤٢ بعد بضعة أبنية من المنزل الذي كانت تسكن فيه، وبيع الأكورديون الخاص بأبيها تحت الرقم ١٣٣ بمبلغ ٣٦ ماركًا للسيد موسْمان من شارع زَلْتسماركت رقم ٦. في مساء هذا اليوم الذي عادت فيه إلى مقرها قبل منع التجول بوقت قصير، في ذلك المساء الذي كان أحد أطول مساءات عام ١٩٤٢، والذي هبت فيه ريح صيفية مبكرة خفيفة كنست الجرائد من فوق جثث الموتى الذين غُطُّوا بها، فانتشرت رائحة التعفن، في ذلك المساء المضيء الذي عادت فيه إلى مقرها ماشية ضمن صف طويل من العائدين كي لا تتعثر بالجثث، في مساء ذلك اليوم الذي ارتفع فيه بكاء الأطفال الأيتام في مداخل المنازل كأي يوم آخر، في مساء هذا الاثنين الذي وضعت فيه أمها أمامها حبات البطاطا التي استبدلتها بساعة اليد، وهي غالبًا آخر بطاطا ستأكلها في حياتها، في هذا المساء كانت بياضات أسرة إرنست وإليزابت ودوريس قد استقرت مكوية في خزائن العائلات فيتجر وشولتس وموللر وزايلر ولانجمان وبرول وكلمكر وفرولِيش وفولف بسعر يتراوح بين ٨.٤٠ مارك حتى ٨.٧٠ مارك للزوج تحت الأرقام ١٧٧ حتى ١٨٥.
الظلمة الشديدة هنا قد تشبه تلك تحت القارب الذي انقلب آنذاك قبل الشاطئ بقليل، عندما أراد الفتى القروي أن يقوده إلى اللسان الخشبي. وقبل أن يعود إلى القرية قادته الفتاة على الطريق الرملي أعلى الرابية حتى شجيرات توت السياج. وفيما بعدِ علمها الفتى السباحة لقاء ذلك. قرب

الشاطئ تمامًا حيث الماء ضحل جدًّا إلى درجة أن تلامس قدماها القعر وهي تسبح، هناك أحست لأول مرة بأن الماء يحملها. وفي الصيف نفسه أيضًا علمتها الجارة كيف تصطاد السراطين. ولكن هل توجد سراطين حقًّا، وبحيرة وقارب وشجيرات توت سياج؟ هل يبقى هذا الفتى موجودًا إن كانت لا تراه؟ هل هناك أحد ما سواها في الدنيا؟ الآن بدأ يتوضح لها ما لم تفكر فيه طوال الوقت: إن لم يعد يعرف أحد أنها موجودة، وإذا لم تعد موجودة، فمن سيعرف الدنيا عند ذلك؟

لم تنتبه الفتاة إلى أن أرضية البناء القديم الذي اختبأت فيه غير مستوية تمامًا، ولأن الظلمة شديدة بحيث لا ترى شيئًا، فإنها لا تستطيع أن ترى خيط بولها وقد تسرب من تحت باب مخبئها إلى الخارج، إلى المطبخ المهجور في المنزل المهجور في شارع نوفوليبي المهجور في وارسو. وعندما جاء فريق تحديد قيمة الأبنية بقيادة جندي ألماني واستقر في المنزل، كان خيط بولها قد شكل بحيرة صغيرة على أرضية المطبخ.

عليها الآن ولآخر مرة أن تمشي على طول شارع تسامنهوفا باتجاه الشمال والشمس وراءها. ثمة آخرون لا تعرفهم يمشون إلى جانبها. لم يعد هناك أي مجال الآن لمصادفات سعيدة. الآن سيذهب الجميع أخيرًا إلى بيوتهم وإلى الأبد. في الشوارع الخالية التي يقطعها الصف البشري بعد كل وحدة سكنية ليتقاطع مع الصف الآخر، كانت طاولات وأسرَّة مَن مر على هذا الدرب قبلهم مرمية محطمة على الأسفلت في ظلال الأبنية. وبما أن الغيتو لم يكن كبيرًا جدًّا في أي وقت من الأوقات، فإن الفتاة تعرف بدقة ما تخلفه وراءها. نطق أسماء الشوارع القليلة فيه لا يستغرق أكثر من تلاوة «أبانا الذي في السماوات» مرة واحدة.

يقال إن شملينج حمل ذات مرة جذع شجرة كالنير على رقبته وكتفيه، ومشى به الطريق كله من بيته الصيفي في المنتجع المجاور حتى مرج السباحة في القرية. هكذا درب عضلات ساعديه، قال لها الفتى القروي. فأجابته بأنها لا تصدق ذلك. فأصر الفتى القروي وقال إنه كان هناك بنفسه عندما وصل شملينج ورمى جذع الشجرة على المرج وكأنه مصنوع من ورق، تمطى مرة واحدة ثم قفز في ماء البحيرة، وبقي يسبح مبتعدًا إلى أن لم يعد أحد قادرًا على رؤيته. صاح أحد القرويين: يا ناس، ابننا شملينج سيغرق! وقد صدق الفتى ذلك حينها، وترجى القروي من كل قلبه أن يسبح في إثر الملاكم لينقذه، علمًا بأن الأمر كله كان مجرد مزحة.

يوجد في عربة القطار مائة وعشرون إنسانًا، يختنق منهم نحو عشرين خلال الرحلة التي تستغرق ساعتين. وبما أنها يتيمة الأبوين فقد اعتُبرت مثل بعض المسنين العاجزين عن المشي وبعض من فقدوا عقولهم في أثناء الرحلة، عائقًا أمام التنفيذ السليم للأوامر، ولهذا ستُستبعد من القطار بعد وصوله مباشرة. يتجاوز القطار كومة ثياب بارتفاع جبل، فتتذكر نَكْليجر، وتتذكر

ابتسامتها عندما سمعت من البستاني الأسماء الغريبة لمرتفعات الأعماق. أحاطت بها طوال دقيقتين سماء بيضاء قليلة الغيوم، تمامًا كما فوق البحيرة قبيل المطر، استنشقت طوال دقيقتين رائحة أشجار الصنوبر التي تعرفها جيدًا، ولكن من دون أن ترى الصنوبرات نفسها بسبب ارتفاع السور. هل وصلت حقًّا إلى الوطن؟ أحست طوال دقيقتين بالرمل تحت حذائها، وببعض الصوَّان وحصى الكوارتز والجرانيت، قبل أن تخلع حذاءها للمرة الأخيرة وتقف على اللوح الخشبي كي يطلقوا عليها النار.
لا أجمل من أن تغطس بعينين مفتوحتين. أن تغطس عميقًا لتصل إلى سيقان أمها وأبيها اللامعة بعد أن سبحا وعادا الآن إلى الشاطئ عبر المياه الضحلة. لا أجمل من دغدغتهما وسماع ضحكهما المكتوم عبر الماء كي يدفعا السرور إلى قلب طفلتهما.
طوال ثلاث سنوات تعلمت الفتاة العزف على البيانو، ولكن الآن بينما يتدحرج جسدها الميت إلى الحفرة ستُسحب كلمة بيانو من البشر، وستسحب أيضًا حركة القلب بعكس الاتجاه سباحة التي كانت تجيدها أكثر من زميلات مدرستها، وكذلك جميع حركات السباحة واصطياد السراطين، إضافة إلى دورة عقد حبال الأشرعة القصيرة، وأخيرًا وآخرًا اسم الفتاة نفسها أيضًا: دوريس، الذي لن يناديها به أحد بعد.

البستاني

في الشتاء يجلب البستاني قطع الحطب المخزنة منذ السنوات المبكرة، يحملها على عربة الجر صعودًا إلى البيت، ويشعل النار في الموقد والمدفأة لصاحبة البيت وابنة أختها.
يقلِّم شجرات التفاح والإجاص، ويساعد صاحبة البيت في الربيع بتنزيل الصناديق التي خبأت فيها كل ما له قيمة لإنقاذه من أيدي الروس. يحضر المجاديف ومساندها عندما تريد الخروج بالقارب لإغراق الصناديق في الموقع الضحل من جبل نَكْليجر تحت الماء. وعندما جاء الروس وضعوا نحو مائتي حصان في الحديقة، نحو سبعين منها في المرج الصغير قرب البيت مباشرة، ونحو مائة وثلاثين في المرج الأكبر إلى يمين الدرب الذي يؤدي إلى البحيرة نزولًا. نبشت الخيول بحوافرها في الأرض المخضبة بالندى، فتحولت خلال يوم واحد إلى وحل. التهمت الخيول كل ما يؤكل حولها: أوراق الأشجار الطازجة، وزهور الشجيرة الفرسيتية، وأغصان التنوب الجديدة، وبراعم البندق والليلك. صادر الروس مخزون العسل كله. حينذاك كانت حشرة البطاطا تتجه بعكس حركة الجيش الأحمر، فوصلت إلى الاتحاد السوفيتي وبدأت بالتهام حقول البطاطا التي أبقى عليها الألمان هناك.

ضابط في الجيش الآحمر

أُحضر في أثناء الليل اثنا عشر حصانًا آخر، فزاد عددها في الحديقة على مائتي حصان تشخر وتضرب الأرض بحوافرها. يمشي ضابط شاب في الجيش الأحمر بينها كما في إسطبل سقفه السماء السوداء، فرائحة الحيوانات تحمي الحديقة ضد الليل بأفضل مما توفره جدران أو بوابة. الأشجار سوداء، الأجمات سوداء، الحشائش المهروسة تحت الحوافر سوداء، وسوداء أيضًا هي أجسام الحيوانات التي يعرفها الضابط الشاب حق المعرفة، إلى درجة أنه قادر بعينين مغمضتين على التنقل من حصان إلى آخر متلمسًا طريقه إلى الدار. أعطى الضابط الشاب أوامره للانطلاق مرة ثانية بحثًا عن حيوانات مخبأة في الجوار. تفوح من الدار رائحة إفرازات رجاله. كلما ازداد غنى الدور التي يقيمون فيها مقراتهم ازداد خراؤهم، وكأنهم بهذه الطريقة يصححون ما انحرف عن الخط المستقيم. كان رجاله بعضهم يحمِّس بعضًا للتغوط على الأرضية الحجرية اللماعة، وللتبول على الباب الذي رسمت عليه لوحة، تقيأوا أيضًا وراء المدفأة. ولهذا السبب فقد استقر في الطابق الثاني من الدار، في غرفة صغيرة ذات بلكون. هو نفسه يبول من البلكون ويتغوط في الحديقة، ولكن فقط لأنه يفضل أن يكون وحيدًا عند قضاء هذه الأمور. في الآونة الأخيرة منذ أن تغلغلوا عميقًا في الأراضي الألمانية بلغ غضب الجنود هذه الدرجة التي باتوا يخوضون الحرب معها بأمعائهم. وكلما ارتفع عدد البيوت الألمانية التي دخلوها واجههم بألم أشد السؤال: لماذا لم يستطع الألمان البقاء هناك في بيوتهم حيث لم ينقصهم للعيش أي شيء، وحقًّا لم تنقصهم أدنى متطلبات الحياة؟

تجنب الضابط الشاب في الجيش الأحمر الخوض في أمور كثيرة مما كان يقدم عليه الجنود الأكبر سنًّا، لكنه لم يتجنب أي معركة. ولهذا السبب وعلى الرغم من أن لجلده لمعان بشرة طفل فإنه برتبة رائد. لقد تطوع في الجيش منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره، بعد أن قتل الألمان أمه وأباه وأختيه. كانت أخته الصغيرة ذات الأربع سنوات أول من وَجد من عائلته عند عودته من المرعى إلى دار أهله. كانت تسبح في البئر ووجهها للأعلى. كانت في الليلة الماضية نائمة في سريره وهي تتنفس. ومنذ ذلك الحين بات في الصف الأول، وفي لحظة ما تحول طرد العدو إلى اجتياح لأراضيه، وتحول الدفاع عن الوطن إلى فَتْك بالغربة، التي ما كان ليطأها بقدمه طوال حياته لولا ذلك. مثل نبتة انتزعت من تربتها وقُذفت بقوس واسع عبر الهواء بكل قوة، هكذا دفعته إلى الأمام طاقة تتجاوز ذاته وتتجاوز جسمه الذي ما زال طفوليًّا، هي التي دفعته إلى التقدم والقتال والأخذ، كي يدفع الألمان على

الخارطة أبعد فأبعد، بعيدًا عن بلدهم، عبر سويسرا أو فرنسا أو النمسا وإيطاليا، ودائمًا نحو الجنوب حتى البحر الأبيض المتوسط أو الأطلسي، ولملاحقتهم من ثَمَّ في الأعماق، إلى أن تختنق أخيرًا حركته وحركة العدو في السكون نفسه. يحتمل أن تكون أخته الصغرى قد ركضت خارج البيت فأمسك بها الألمان. أما والده ووالدته وأخته الكبرى فقد أحرقوا في دارهم. يدا أمه وصدرها وعيناها أحرقت في الدار.

حول السرير الذي ينام فيه الآن أُلبست الجدران حتى منتصفها بحرير وردي يخفي وراءه أغطية خشبية متفصلة تغطي فراغات محفورة في الجدران ولا تفتح إلا بمفتاح أمان رباعي. ووراء هذه الأغطية الخشبية رُتبت مفارش وبياضات السريرين التي يتنعم بالنوم فيها منذ بضعة أيام. تفوح من البياضات رائحة النعناع والكافور، مثل رائحة معطف الصباح ذي اللون الكريمي الذي وجده داخل خزانة قليلة العمق مقابل السرير. وهذه الخزانة قليلة العمق مزودة يمينًا ويسارًا بعمودين خشبيين، مثل باب محفور في جدار، ومزود بقبضة نحاسية للفتح، وعلى السطح الداخلي لباب الخزانة رُكبت مرآة بطول رجل. وعندما شَغَل الغرفة فتح الضابط الشاب الباب ليرى ما وراءه، رأى المعطف الصباحي معلقًا هناك، ومن دون أن يدري سببًا لما فعل، أخذ قماش المعطف بين يديه وتشممه، نعناع وكافور. في أثناء ذلك عكست المرآة صورته بصمت، من شعره الروسي القصير حتى نعلَي جزمته المتهرئين من كثرة المشي، من موطنه إلى هنا، وكل ذلك في مرآة ألمانية، ثم أغلق الضابط الشاب الباب ثانية. ومنذئذ، عندما يكون وحيدًا في الغرفة، كان يمشي إلى الخزانة قليلة العمق، يفتحها، يُغرق وجهه بعض الوقت في القماش ذي اللون الكريمي من دون أن يدري سببًا لذلك، وغير آبه بصورته في المرآة، ثم يغلق الباب في وقت ما ويستلقي في السرير. وفي هذه الليلة أيضًا مد يده داخل القماش الناعم اللماع، شده إلى وجهه، دلكه بين أصابعه، دلك الوجه الداخلي الخشن على الوجه الآخر، تنشق رائحة النعناع والكافور بعمق قبل أن يغلق الباب ويستلقي في السرير، محاطًا بالجدران المغلفة بحرير وردي. كان باب البلكون مفتوحًا على الظلام الخارجي، والخيول تحمحم بصوت خافت في الحديقة، أو تشخر وتنكش الأرض بحوافرها في الإسطبل الرطب الهائل الذي يبلغ حتى النجوم.

وفي هذه الليلة سمع صوتًا جديدًا، حفيفًا كأصوات النموس التي بنت جحورها في العلية تحت الجملون. اصطاد واحدًا منها أمس، وفروته معلقة الآن على درابزين البلكون الصغير. عاد الحفيف ثانية من وراء الجدار الذي رُكبت فيه الخزانة قليلة العمق. نهض الضابط الشاب بسرعة، وقبل أن يتمكن من التفكير بأنه لا مكان للنمس في جدار إذا كان كل شيء قد بُني كما يجب. فتح باب الخزانة، فحل السكون فجأة وراء الجدار الذي عُلِّق عليه المعطف الصباحي، فتراجع إلى الوراء وأخذ يتفحص الخزانة قليلة العمق من الأعلى

إلى الأسفل، وتفحص العمودين الخشبيين على جانبيها من الداخل، فرأى الآن أنهما غير مستندين تمامًا إلى أرضية الخزانة. ركع على الأرض ولاحظ في فراغ المليمترات الفاصل بين العمودين والأرضية حدبتَي دولابين صغيرين مخفيين داخل أسفل العمودين، والآن لاحظ أيضًا أن في الأرضية الطرية المصنوعة من الفلين وأمام الخزانة مباشرة أثر نصف دائرة محفوفة، في حين كان الباب ذو المرآة يُفتح ويُغلق بمنتهى البساطة. وفي الجزء المتبقي من الثانية الذي فكر فيه وفهم، فكر وفهم أيضًا أن هناك على الجانب الآخر من الخزانة قليلة العمق إنسانًا يتنفس، وقد بات يعرف جميع أفكاره وينتظر الآن نهاية هذه الثانية الطويلة الطويلة.
سحب مسدسه، أغلق باب المرآة بهدوء ثم شده فجأة بنترة قوية من دون أن يدير القبضة المعدنية كالعادة. وكما توقع انفصل الآن أحد العمودين الخشبيين عن كسوة الجدار، ومع صرير خفيف استسلمت الخزانة لحركة السحب القوية، وكأن الضابط الشاب كان يفتح كتابًا سميكًا ذا غلاف خشبي. نظر إلى داخل الخزانة العميق الذي كان مخفيًّا حتى الآن، فرأى جاكيتات وأثوابًا ومعاطف وقمصانًا وبلوزات معلقة بعضها إلى جانب بعض بكثافة شديدة، ورأى على الرف فوقها كنزات ومناديل وقبعات. حاملة علّاقات الثياب تختفي في العتمة إلى يمين فتحة الباب من حيث يأتي صوت الحفيف أيضًا، بيد أن الضابط الشاب لا يستطيع أن يرى شيئًا. لكن رائحة بول وغائط طازجة جدًّا صدمته بقوة، ورأى تحت الأثواب قصرية مملوءة بهما. بعضهم يخرأ من الخوف، وبعضهم لأنه لا يستطيع مغادرة مخبئه، وبعض آخر بسبب الغضب، وإذا ما جمعنا هذا إلى ذاك فالنتيجة هي ما يسمى «الحرب»، هكذا فكر الضابط الشاب، ربما كان الألمان قد أخفوا الكثير الكثير، خطر ببال الضابط عندما اكتشف الخزانة السرية، فحتى بياضات السريرين أخفوها في الجدار، مثلما أخفوا أجهزة التدفئة وراء شبك خشبي، من دون أن يحسبوا حسابًا لارتداد الحرب عليهم، لقد كانوا يخفون الأشياء عن أعينهم بالذات. والآن أخيرًا سيقتلع كل شيء من مخابئه إلى وضح النهار: الثياب والمصاغ والدراجات والبهائم والخيول والنساء. الجميع سيشاهد هذا الآن، وعليهم هم أنفسهم أن يروه بأم أعينهم. كل شيء سيعرض تحت الأضواء ولسوف يُستخدم، فمن بقي حيًّا لن يغتسل بعد الآن، ومن دفن تحت الأنقاض سيتفسخ وستفوح منه رائحة مقيتة.
اندفع الضابط في الجيش الأحمر ومسدسه موجه نحو عتمة الخزانة بين الثياب نحو الوراء، إلى أن اصطدم بجسم أخذ يقاومه بصمت عندما مد يده نحوه. كان الضابط لا يزال طفلًا قبل الحرب، ولم يهتم في أثنائها قَطُّ باستخدام النساء. أما هنا، وبعد أن أعاد المسدس إلى جرابه ليثبِّت بكلتا يديه ما يتثنى وينسل من قبضتيه، كان منشغلًا بالقبض عليه واحتوائه، وبمحاولته ذلك اضطر إلى الاقتراب جدًّا بحيث إنه من دون أن يفكر بما يفعل لمس في

العتمة ثديين دافئين لامرأة ما زالت تقاوم فتشده إليها بمقاومتها، ثم أحس بشعرها على وجهه. وأخيرًا عندما حصرها في الزاوية القصوى عضته في ذراعه، فلوى ذراعيها خلف ظهرها، وعبقت في وجهه رائحة النعناع والكافور التي تذكر بأمراض يتعرض لها الإنسان في السرير، رائحة تشي بالنضج والسلام.
أخذ الضابط الشاب يستعيد هدوءه، وبدأ بهدوء يقبِّل الشفتين اللتين لم يتمكن من رؤيتهما، وهو الذي لم يسبق له قَطُّ أن قبَّل أحدًا على شفتيه، ها هو يقبِّل الآن بأكبر الاحتمالات فمًا ألمانيًّا ممتلئًا، قد يكون ذابلًا قليلًا، لكنه غير قادر على الحكم، إذ لم يسبق له قَطُّ أن قبَّل أحدًا على فمه. ثم أطلق ذراعَي المرأة وأخذ يربت على رأسها. توقفت عن المقاومة، لكنه سمعها تبكي، ربت على رأسها كمن يواسيها ولكن من دون أن يعرف ماذا بعد، على الرغم من أنه قد رأى كيف كان رجاله يتصرفون في حالات مشابهة. «ماما»، قال من دون أن يدري ماذا قال، كانت العتمة شديدة إلى درجة لا يستطيع معها المرء رؤية حتى كلماته. دفعته عنها، تعثر إلى الوراء ووقع، رفسته، حاول أن يمسك بها ثانية فإذا به يعانق ركبتيها. وقفت ساكنة، ثم رفعت رداءها ببطء إلى الأعلى قليلًا. وضع جبينه على بطنها، ويبدو أنها كانت عارية تحت الرداء. تنشق بعمق رائحة الحياة المنبعثة من الشعر الجعد. قالت كلمة أو كلمتين، ولكن كلماتها أيضًا لا يمكن رؤيتها في عتمة المخبأ. قد لا توجد الحرب إلا بطمس الجبهات، فالآن وهي تدفع رأسه بين ساقيها، لعلمها بامتلاك الجندي سلاحًا ولأنه من الأذكى ألا تبدي مقاومة، فإنها تتولى القيادة، ثم تنقلب الآية، وهكذا دواليك باستمرار. وعندما دفع الجندي الشاب، ربما خوفًا من المرأة، لسانه بين شعرها الجعد، وذاق طعمًا كالحديد تدفق على وجهه، ببطء أولًا، ثم بغزارة سيل ساخن. لقد بالت المرأة على وجهه مثلما بال رجاله على الباب المزين بالرسوم في ردهة البيت. وبما أن المرأة قد بالت عليه فهي تقود حربًا، أم أن هذا هو الحب؟ الجندي لا يعرف، إذ يبدو كلاهما متشابهًا جدًّا الآن، بما أن دوره قد جاء لتولي القيادة وهو لا يزال راكعًا. وعلى الرغم من كل البلل، انهمرت دموعه على وجهه، بنفس سخونة السيل الذي اجتاحه، والذي امتزج الآن مع دموعه في أعماق خزانة ألمانية. ولكنه بدلًا من أن يتولى القيادة، بقي راكعًا عند قدمَي المرأة وأخذ ينشج بصوت مسموع، ويحتمل أن تكون هذه نقطة ضعفه التي جردت المرأة من سلاحها بفعالية أكبر مما كان بوسع العنف أن يحققه. فها هي ترفعه أخيرًا إليها وتجفف له وجهه بإحدى قطع الثياب التي يقفان بينها وتكلمه بصوت خافت. وكانت على وشك أن تربِّت على مؤخرته بضربة خفيفة صارفة إياه من الخزانة، كأم تودع ابنها الصغير على طريقه إلى المدرسة.
هناك في موطنه لم توجد مثل هذه الأمور. وكأن الطفولة والوطن قد انتهيا معًا. هناك حيث كان موطنه، كان لكل فتاة على طريق المدرسة ضفيرتان أو

أرجوحة قرود (١٣)، مع أشرطة حريرية حمراء كبيرة ووشاح رقبة مثلث الشكل. كن يرفعن رؤوسهن في أثناء المشي بشكل لم يرَه هنا في ألمانيا لدى أي امرأة، وكأنهن قد أفرغن تمامًا من كل ما يوجب الانحناء. كن يتمشين في المساءات الصيفية بهذه الرؤوس المرفوعة حتى أطراف الحقول، إما ثنائيًّا أو ثلاثيًّا أحيانًا، ويتسامرن ويتضاحكن عندما يرين الفتيان مستندين إلى جذوع الزيزفون؛ كن يضحكن ويتجاوزنهم مع تحليق طيور السنونو، فيما يقف الفتيان أو يجلسون تحت شجرة الزيزفون. وأحيانًا، بل نادرًا، ينجح الفتيان في توريط الفتيات في حوار على طريقهن إلى الدار. وذات مرة لم تتكرر، قبلت إحدى الفتيات عرض الفتيان وجلست على المقعد تحت الزيزفونة، فنهض الفتيان جميعًا من فورهم، إما بتراخٍ أو بنعومة وهم يتدافعون ويتصادمون، فيما جالستهم الفتاة ومازحتهم لا أكثر من خمس دقائق. أما النساء اللواتي يعرضن أنفسهن علنًا في الشارع أو في بيوتهن، كما هي الحال هنا في ألمانيا، فهذا ما لم يرَه قَطُّ في موطنه، ولم يرَ صورًا أو مجلات سيئة السمعة. قبل مدينتين أو ثلاث، وفي أحد استوديوهات التصوير الضوئي الذي هدَّمت القنابل جدرانه وحطمت زجاج واجهاته، وبينما كان رجاله ينهبون المحل، وقع نظره على صورة مكرمشة على الأرض، رأى فيها امرأة عارية تهدد بالسوط امرأة عارية أخرى. كانت هذه الصورة، مقارنة بقطع الموزاييك التي تزين مبنى رئاسة البلدية في البلدة الأكبر والأقرب إلى داره في موطنه، كبعد روسيا عن ألمانيا. كان على قطع الموزاييك هناك نساء يحملن على أذرعهن حزم سنابل، وطالبات يافعات يحملن بأيديهن أنابيب اختبار، وأمهات أطفالهن في أحضانهن. كان كافيًا لأن تقع في الوطن في الحب، أن ترى الفتاة وهي تفرد ضفيرتها فينسدل الشعر على كتفيها استعدادًا للاستحمام. أما النساء ذوات السياط فقد ارتبطن في ذهنه، على النقيض، بالاستوديو المدمر والمنهوب، وكأنهن كن واقفات فوق طبقات وطبقات من الأشياء التي داستها الأقدام فتمزقت واهترأت، فبسطن أنفسهن كي يشعلن النار بآخر متعة شريرة لديهن ويؤججنها. أخذ رجاله هذه الصورة وأخرى تشبهها واحتفظوا بها في جيوب ستراتهم الميدانية مع صور زوجاتهم وأطفالهم. لقد تعلم في المدرسة في الاتحاد السوفيتي أن الحبوب تبذر في الأرض من أجل المستقبل السعيد للإنسانية جمعاء. ولكن الآن، على الطريق عبر ألمانيا والتي كانت رحلة حرب، لحق بالرجال السوفييت ماضٍ قذر ما كانوا يعرفونه حتى ذلك الحين، وقذف بهم مجددًا إلى الغربة. ومع ذلك لا بد أن يأخذ المرء في الحسبان أن بولونيا منذ بدء الحرب قد أُلغيت على صعيد الواقع، وحتى الحدود التي كانت روسيا وألمانيا تتنازعان عليها.

في عمق الصمت عادت المرأة الآن إلى الهجوم، مركزة على منتصفه تمامًا. «لا تستغرق في الأحلام»، هكذا كانت أمه تقول له دائمًا. مدت يدها عبر

بنطاله، أمسكت بقضيبه، وجعلته يتمدد على الأرض. إنها أقوى منه بكثير. رمت نفسها فوقه لتغطيه، بسبب فقدان التغطية الآن. هذه الفرس ذات الأيدي الخبيرة فكت عنه بنطاله وانتصبت فوقه، ركبته، أمسكت بحنجرته وأخذت تضغط وهي تهمس باللعنات. لم يعد يقاوم، إذا كانت هذه رغبتها فلتغمد شوكته في لحمها، أغلقت فمه بيدها وأخذت تبصق على وجهه، وهي ترهز وهو يدفع. خلعت بلوزتها وأخذت تصفع وجهه بثدييها، فيما يسمع نفسه يتأوه ويقول: «لا» بالروسية، وهي تقول: «بل نعم». وعندها دفع عنه الفرس بحركة مدمرة. النصر يتمسح بالهزيمة، والهزيمة بالنصر والعرق المكدود والسوائل ما بين الشعوب، والقذف القذف حتى تُقذف الحياة كليًّا، وحتى تصبح الصرخة الأخيرة هي نفسها في اللغات جميعها. ها هو الموت قد وجد أخيرًا سكته، وكذلك الشباب والكهولة، هذا الذي كان والذي قد يأتي، يمكن للمرء أن ينساه من دون حرج، إذ لا شيء الآن هنا على الإطلاق، لا شيء، لا شيء سوى تنفس مكدود شارد بين الأفواه، بقية شيء ما، مرتخية كالثياب فوق رأس الضابط الشاب ورأس هذه المرأة التي لا يمكن التعرف عليها في الظلام. في الصيف الأخير عندما لبست هي أو غيرها هذه الثياب كان السلام يسود المنطقة هنا.

كان كل ما فعله هو أنه فتح خزانة.

وها هو الآن يغلق الخزانة ثانية.

رجاله في الخارج يدخلون إلى الحديقة عائدين لتوهم من جولتهم التفتيشية. يسمع صيحاتهم وكلامهم تحت في الحديقة، ثم يدخل الصياح والكلام إلى البيت، ينادونه، فيقول: ـ أنا قادم.

ينزل الدَّرَج ويرى رجاله يتمطون على المقعد، وسمك الرنجة على ورق مشبع بالدهن فوق الطاولة الطويلة، إضافة إلى خبز وزجاجة فودكا وضعها أحدهم لتوه. يخبرونه بأنهم لم يعثروا على أي خيول. لكنهم وجدوا في الغابة بعض البدلات العسكرية الألمانية، مخبأة بصورة سيئة تحت أوراق الأشجار، ويقولون إن الألمان قد ولوا الأدبار. كان أحد رجاله يجرب معطفًا ألمانيًّا. قال: ـ إنه ليس سيئًا. مناسب.

وهناك على الأرض معطفه السوفيتي المهترئ تمامًا.

قال جندي آخر:

ـ سأجرب أنا أيضًا.

وبدأ يخلع ثيابه.

قال الرائد الشاب:

ـ سأنام اليوم هنا تحت.

فعلق أحد الجنود من المتقدمين سنًّا ضاحكًا: ـ خفت من البقاء وحدك فوق، أليس كذلك؟

وصاح:

ـ هيا أعطوه وسائد ظهر المقعد.
نزع اثنان إحدى الوسائد عن المشابك النحاسية الصغيرة، وأخذا يعويان عندما ظهر الآن أن ظهر المقعد تحت الوسائد ملبس بالجلد. قال أحدهما: ـ ها هي جزمتي الجديدة.
واستل سكينًا.
قال الرائد الشاب:
ـ لحظة، هذه الجزمة لي.
ودفع الطاولة جانبًا. رمى الوسادة للجندي الذي لبس المعطف الألماني، أخذ السكين من يد الآخر، وقال له مع ابتسامة شامتة: ـ دائمًا يضيع حق الصغار.
فالجندي أضخم وأقوى بكثير من الرائد الشاب، والكل يرى ذلك بوضوح، فضحك الآخرون بشماتة أيضًا عندما ركع إلى جانب المقعد كي يتمكن من القص بصورة أفضل. ما زالت هناك وسادتا ظهر، نزعهما من مكانيهما ورماهما للآخرين وبدأ يقص الجلد عن ظهر المقعد مربعًا وراء الآخر، اثنتي عشرة قصة قوية وبحسم، ولكن من دون جشع، وكأن الأمر يتعلق بإجراء عملية ضرورية لإنقاذ مصاب. وفي أثناء ذلك أخذ اثنان يتنازعان حول المعطف الألماني الأخير، والثالث يتجشأ، فيما تمدد الرابع على المقعد المجاور للمدفأة لينام وهو يقول: ـ تقريبًا كما في الدار.
أخذ الفجر ينبلج في الخارج، لكن ألواح الزجاج الملونة في نوافذ هذا المنزل تحول رمادية الصبح إلى خضرة.
قال الرائد:
ـ ننام ساعتين ثم تجهز الخيول، الانطلاق عند الظهر.
رتب المربعات الجلدية بعضها فوق بعض، ثم لفها ووضعها تحت رأسه كوسادة عندما استعد للنوم على وسائد مسند الظهر، وكأنها لفافة من الجلد.
صباحًا عندما كان الآخرون منشغلين بإخراج الخيول من الحديقة إلى الدرب الرملي، تناول نصف رغيف خبز وصعد إلى الغرفة العليا، خرج إلى البلكون ورفع فروة النمس عن الدرابزين ووضعها على كتفيه، ثم توجه نحو الخزانة، أمسك بأحد العمودين المزيفين وفتح الخزانة. رمى نصف الرغيف إلى عتمة الخزانة من دون أن ينظر، أغلق الخزانة ثانية وغادر الغرفة. بفروة النمس غير المعالجة حول كتفيه وبلفة الجلد في جيب معطفه بدا الرائد مثل الصياد.
في قريته هناك في الوطن كان هناك رجل تعوَّد على الحياة في الغابة، ولم يعد للاختلاط بالناس إلا عند بيعه أو استبداله طرائده مقابل أسلحة وذخيرة. كان يعيش مع الحيوانات التي عاجلًا أو آجلًا تصير طرائد صيده، وكان يشعر هناك بأنه في بيته وليس عندما يكون بين البشر. ذات مرة طال غيابه عن القرية ثم ظهر ثانية، بحيث لم يعد أحد يدري إن كان حيًّا أم ميتًا. لم تعد هذه القرية موجودة الآن، ولكن يحتمل أن يكون الصياد ما زال يجوس عبر الغابات. ويحتمل أن يكون قد استلقى إلى جانب الحيوانات وقد نفق أخيرًا

بوصفه طريدة نفسه.

البستاني

بعد انسحاب الروس قلَّم البستاني الشجيرات والأجمات على أمل أن تثمر ثانية، ربما. قلب التربة في المرجين الصغير والكبير وزرع فيهما البطاطا بفارق ٤٠ سم بين الغرسة والأخرى، إذ تحتاج نبتات البطاطا إلى كثير من الماء. أخرج البستاني لصاحبة البيت من الورشة مجدافَي القارب ومغلاقيهما اللذين يثبتان على طرفيه، وساعدها في انتشال الصناديق التي أغرقت في الموقع الضحل من جبل نَكْليجر الموجود تحت الماء، كما ساعدها في نقل الصناديق إلى البيت، واستخرج العسل. كان يجلس مساءً على عتبة المنحل ويدخن سيجارًا، ويستلقي مع حلول الليل لينام على فراشه إلى جانب قدر تصفية العسل. عندما بلغت نبتات البطاطا طول ١٥-٢٠ سم جمعها وراكمها. دهن اللسان الخشبي بالقطران واستبدل الألواح المتعفنة. قلَّم الصفصافة التي تكبر على الشاطئ، والتي تميل أغصانها كثيرًا عند مقدمة اللسان الخشبي بصورة مزعجة لمن يود دخول اللسان. وضع أقراصًا جديدة في خلايا المنحل. استأصل الأعشاب الضارة من حوض الورد أمام البيت. كان يسقي الشجيرات ونبتات البطاطا وحوض الورد مرتين يوميًّا، عند انبلاج الفجر وعند بداية الغسق. عندما بدأت أوراق البطاطا بالذبول والموت آن وقت جمعها، فخزنها في القبو المعتم والبارد. وفي الخريف كان يجمع أوراق الأشجار المتساقطة ويحرقها، ويغطي حوض الورد وحوض الزهور أمام البيت بأغصان الشربين ليحميها من الصقيع. ويفرغ في نهاية الخريف أنابيب الماء في البيت ويغلق الصنبور الرئيسي، ثم يغلق جميع درفات نوافذ البيت، ومشلح السباحة تحت عند شاطئ البحيرة. يخرج جهاز التدفئة الكهربائي من القبو وينصبه عنده في غرفة تصفية النحل. يقلِّم البستاني في الشتاء أشجار التفاح والإجاص. ويشعل المدفأة في الدار سابقًا في حال قدوم المهندس المعماري وزوجته في زيارة، ويفتح الصنبور الرئيسي مجددًا طوال إقامتهما.

ساعد البستاني صاحب البيت في الربيع في نصب سور أمام البيت، يحيط بحوض الورد وشجرة السرو ومدخل الجراج، وخاصة بالبوابة الرئيسية لحماية المكان من زوَّار غير مرغوب بهم. قصقص الأجمات وبذر بذور الحشيش في المرجين حيث كان قد زرع البطاطا، وساعد في تفريغ حفرة المرحاض. استأصل الأعشاب الضارة واستمر في سقاية المرجين العاريين إلى أن أنتش الحشيش. جمع الكرز والتفاح والإجاص وخزنها في قبو البيت. جمع أوراق الأشجار وأحرقها، نشر الأغصان الجافة، حطَّبها، أخرج جهاز التدفئة الكهربائي من القبو ونصبه عنده في غرفة تصفية العسل. ووضع في الشتاء فخاخًا للنموس في علية البيت. وكان يدفئ البيت في حال قدوم المهندس

المعماري وزوجته في زيارة، يقلَم أشجار التفاح والإجاص، ويغطي في الربيع حوضَي الزهور والورد ويقصقص الأجمات ويستأصل الأعشاب الضارة، يستبدل أقراص العسل، وينصب في الصيف مرش الماء في المرج مرتين يوميًّا، ويقلِّم أشجار الكرز. يجمع في الخريف الأخشاب ويدخن بها جحور الخلد، ويفرِّغ مع مطلع الشتاء جميع أنابيب الماء في البيت.
بعد بضع سنوات، عندما هوَت شجرة الشربين الأزرق قبيل رأس السنة، كادت بسقوطها تصيب السطح القصبي للبيت، لكنها سقطت بشكل مائل على الدرب المار ما بين المرجين والمؤدي نزولًا إلى شاطئ البحيرة، وكسر ثقلها بعض الورد في الحوض أسفل الشرفة. نشر البستاني الجذع وحطَّبه، ورتب القطع فوق بعضها تحت، في مستودع الخشب. وفي الربيع عندما كان منهمكًا في استبدال الورد بغيره في الحوض اصطدم مجرافه في أثناء الحفر بصندوق مملوء بأدوات طعام فضية. ولما كان البيت في تلك الآونة مختومًا من قبل الدولة، فقد وضع الصندوق عنده في غرفة تصفية العسل، على رف إلى جانب برطمانات مملوءة بالعسل.
في السنة التالية سمحت إدارة البلدية للبستاني بالاستمرار في السكن في غرفة تصفية العسل، وسلمته كذلك مفاتيح الورشة ومستودع الحطب. وطوال ربيع وصيف وخريف وشتاء استمر البستاني في خدمة الحديقة التي باتت بلا صاحب، مثلما كان يخدمها سابقًا، فيسمِّد ويسقي ويقلِّم ويبدل أقراص المنحل ويصفي العسل، يلف جذوع أشجار الفاكهة بقماش كي لا تأكل الظباء القشرة عندما تدخل الحديقة قافزة من فوق السور. كان البستاني يستأصل الأعشاب الضارة ويجمع المحصول، ويجمع الأوراق المتساقطة والأغصان اليابسة، يحرقها، ينشر الخشب ويحطبه، يدخن الجحور ويغطي الأحواض بأغصان الشربين. وما يحتاج إليه للعيش كان يقايضه مع الفلاحين مقابل فواكه وحطب وعسل. بعد سنة وثلاثة أشهر جاء سادة البيت والحديقة الجدد، الذين حصلوا على قطعة الأرض وتوابعها وفق مبدأ الضمان من إدارة البلدية. وتبين أنهما زوجان، كاتب وكاتبة من برلين. عرفهما البستاني على الحديقة والمشغل ومستودع الحطب واللسان الخشبي ومشلح السباحة والمنحل الذي يشتمل على اثنتي عشرة خلية وغرفة تصفية العسل، وسلمهما المفاتيح.
تشاور سيد البيت الجديد مع البستاني حول بعض التغييرات في الحديقة. فاقترح زرع شجرة سُمَّاق في وسط المرج الصغير وشجرة قيقب في وسط المرج الكبير. بدأ البستاني بالحفر لزرع الشجرتين، فاصطدم مجرافه بعد طبقة رقيقة من الدُّبَّال بالطبقة الحجرية المحلية، فكسرها بالمجراف واخترقها، فتحتها توجد الطبقة الرملية التي تحمل الماء، وتحتها كما في المنطقة كلها هنا يظهر الطين الأزرق. حفر البستاني حتى عمق ٨٠ سم وملأ الحفرتين بالسماد النباتي كي تنمو شجرتا السماق والقيقب بصورة جيدة.

بالتشاور مع سيد البيت صب البستاني في الفراغ الحاصل في جذع شجرة الجوز أسمنتًا، كي يمنح الشجرة ثباتًا أكبر. وأخذ يسمد الورد والشجيرات وشتلتَي السماق والقيقب الجديدتين، ويحش الحشيش في المرجين، ويبدل أقراص خلايا النحل ويصفي العسل، ويجمع الكرز، ويسقي حوضَي الورد والزهور عند البيت والشجيرات مرتين يوميًّا في الصيف، وينصب في خلال ذلك المرش المتحرك لمدة نصف ساعة في المرجين وعند أشجار الفاكهة كي يتشبع كل شيء بالماء. يقلِّم شجر الكرز ويجمع التفاح والإجاص. وبناءً على تعليمات سيدة البيت يسلم البستاني إلى مؤسسة التجارة الرسمية ثلثي محصول العسل والفواكه والخضار والبطاطا.

تعاون البستاني مع سيد البيت في رصف بلاطات حجرية أمام المشغل، للحصول على مساحة عمل أفضل من أجل أعمال الدهان والتصليحات. وشتاءً سيكون المشغل مقرًّا للقارب ومجدافيه، ولمساند اللسان الخشبي الحديدية ولألواحه الخشبية. وبناءً على طلب سيد البيت انتزع البستاني الأعمدة التي تأكَّلها العفن من خيمة حماية القارب إلى جانب اللسان الخشبي. وأجرى البستاني إصلاحات ضرورية جدًّا على السطحين القصبيين للبيت ومشلح السباحة. نشر في أثناء الخريف الأغصان التي أسقطتها العواصف من شجرة البلوط الكبيرة ومن بعض أشجار الصنوبر، حطَّبها إلى قطع صغيرة ورتبها فوق بعضها في مستودع الخشب. وعند نهاية الخريف أخرج جهاز التدفئة الكهربائي من القبو ونصبه عنده في غرفة تصفية العسل. وأخيرًا مع بداية الشتاء أفرغ أنابيب الماء في البيت وأغلق الصنبور الرئيسي.

في الربيع التالي تلقى البستاني توصية من سيد البيت بطلاء جميع نوافذ البيت والمشلح وغرفة تصفية العسل، وسد الفراغات ما بين ألواح المشلح، حيث لم تعد الجدران كتيمة بسبب تآكل حشوة العزل، وأعاد طلاء النسيج العازل بلون القطران. أحيانًا عندما كان يجلس على عتبة المنحل، وهو يدخن السيجار لحماية نفسه من أسراب النحل، كان يجلس إليه ابن الكاتبين الذي لا يأتي إلا لبضعة أيام في أثناء العطلة، فيما يبقى بقية الوقت في مدرسة الأطفال الداخلية، ويطرح عليه أسئلة عن حياة النحل.

الكاتبة

«أ-ن-ا أ-ع-و-د إ-ل-ى ا-ل-و-ط-ن»، كانت هذه آخر جملة ضربتها على الآلة الكاتبة بالأمس. وهي تسحب الآن الورقة من الآلة الكاتبة وتضعها جانبًا، فوق كدسة الأوراق القليلة، من صفحات كتابها الجديد، التي كتبتها حتى الآن. تناولت من دُرج المكتب ورقة رسائل فاخرة مزودة برمز الماء، وبدأت كتابة رسالتها إلى الجنرال بصدد مطالبة الجار الجديد بحقه بممر خاص إلى البحيرة، وبصدد المشلح الموجود في الموقع نفسه على الشاطئ وهو مؤمم، فصار ملكًا للشعب، وقد ضمنته مع البيت منذ عشرين عامًا. خاطبت الجنرال باسمه المجرد وبصيغة رفع الكلفة. تلاشى غضبها في أثناء الكتابة وتحول إلى إنهاك، وتساءلت بينها وبين نفسها، ما هذا الذي يفرض نفسه هنا، ما هذا الذي يخوِّل موظفًا في البلدية أن يحدثها باسم سلطات عليا. وبين التمسك بواجب الحفاظ على سرية كون بعض الرفاق قد أُنقذوا من العمل السري، وبين العيش في هذا السلام المبتكر حديثًا؛ ثمة ما يُستثمر بغموض لا تعرف عنه شيئًا.

تستطيع من وراء مكتبها ومن خلال جذوع الصنوبر المشوبة بالحمرة أن ترى تلألؤ البحيرة. تحت في المطبخ تقرقع الطباخة بالأواني والصحون، والبستاني يجلس على عتبة غرفته ويدخن سيجاره، بينما يتراشق ابن الجيران مع حفيدتها بالماء على المرج. زوجة ابنها تمشي بخط مستقيم نحو اللسان الخشبي كي تتشمس، والزائرة تستلقي على كرسي الشاطئ تحت الزعرور البري. ابنها يحشُّ المرج، وتحت أمام المشغل يدهن زوجها باللون الأخضر الكراسي الواطئة المتحركة التي تساقط طلاؤها الأحمر. النافذة مفتوحة، وهكذا وصلت إليها رائحة البحيرة والشمس، ورائحة دخان سيجار البستاني، ورائحة شواء تنبعث من المطبخ، وكذلك رائحة الأعشاب المحشوشة عندما تنقلب وجهة الريح فتهب قادمة من تحت، حاملة معها حتى رائحة الطلاء الأخضر الطازج. يمتزج صوت ضربها على حروف الآلة الكاتبة مع نداءات طائر الوقواق، المسموعة مع كل حرف من المرجين نزولًا إلى المشغل وحتى اللسان الخشبي مع هبوب الريح من الأعلى نحو البحيرة.

نجح تدخلها لدى إدارة البلدة السنة الماضية لمصلحة الطبيب الذي يعمل في مستشفى الوزارة في برلين، كي يستأجر حديقة الفاكهة والمنحل. لكن الطبيب بخلاف اتفاقها معه تمامًا، أمر فورًا بقطع أشجار الفاكهة وبهدم المنحل. وبسرعة شيطانية أو بين ليلة وضحاها أنشأ عمال مجهولون من برلين مسكنًا كبيرًا للطبيب في مكان المنحل، وقيل إنه قد سُمح له بشراء قِطَع المسكن على نحو مخالف لكل الإجراءات سارية المفعول. وعندما

اعترضت على ذلك لدى البلدية، قيل لها إن الأمر محسوم من جهة عليا، مع تعليمات بتصغير أرضها المستأجرة لمنحه ممرًّا إلى البحيرة، وإنه لا بد من حل لامتداد سورها حتى البحيرة بأسرع وقت ممكن. لم يكن هذا الطبيب الشاب قد ولد بعد عندما عادت إلى ألمانيا بعد سنوات من الهروب، لكنه صار خلال ذلك الطبيب الخاص لهذا أو ذاك المسؤول الكبير، وتجرأ فعليًّا على أن يوجِّه ضدها جيشًا لا مرئيًّا، كانت تهدهد جنرالاته بين ذراعيها في أثناء سنوات المنفى.

وضعت الرسالة في مغلف، كتبت عليه العنوان وأغلقته، ثم تناولت الصفحة التي وضعتها جانبًا عند الفجر وركبتها في الآلة الكاتبة، لكي تتابع كتابتها من حيث توقفت أمس. «أ-ن-ا أ-ع-و-د إ-ل-ى ا-ل-و-ط-ن». لقد انمحت الحروف عن أزرار آلتها الكاتبة، فلم يعد من الممكن تمييز حرف من آخر. وهي الآلة نفسها التي أخذتها معها حينذاك من برلين إلى براج، ومن براج إلى موسكو، ثم من موسكو إلى أوفا في بشكيريا. ونحو نهاية الحرب، عندما بات ابنها يتكلم الروسية بطلاقة، حملتها معها مجددًا إلى موسكو، وإلى برلين أخيرًا. لقد حملت هذه الآلة الكاتبة بيدها عبر شوارع كثيرة في مدن كثيرة، ووضعتها في حضنها في القطارات المزدحمة، وتمسكت بقبضتها بشدة في هذه الغربة أو تلك، واقفة وحدها في مطار أو محطة قطار، من دون أن تدري إلى أين، فإما أنها قد أضاعت زوجها في الزحام، وإما أنه في مهمة أخرى وقد ركب قطارًا آخر. كانت هذه الآلة الكاتبة جدارها حين كان مسكنها طرف سقف فوق أرضية. وبهذه الآلة كتبت جميع الكلمات التي كان يفترض بها أن تعيد البرابرة الألمان إلى بشر والوطن إلى وطن.

«أريد أن أعود إلى الوطن. إلى الوطن وحسب». هذا هو ما كتبه في يومياته موظف ألماني عُيِّن رئيس بلدية لبلدة صغيرة في المنطقة المسماة «فارتجاو»، بعد أن أخبره زميله أن جميع اليهود في المنطقة، في أثناء إجازته، قد حشروا في الكنيسة طوال ثلاثة أيام، ثم نقلوا في عربات الغاز إلى الغابة. جثث الذين ماتوا في أثناء الأيام الثلاثة رميت إلى الأحياء في عربات الغاز، كما رمي الأطفال الموتى إلى ذويهم الأحياء. بعد ذلك وبسببه كتب رئيس البلدية في يومياته: «أريد أن أعود إلى الوطن. إلى الوطن وحسب». كانت هذه اليوميات لاحقًا جزءًا من المواد التي وضعت بين يديها لاستخدامها في برنامجها الإذاعي الموجه إلى ألمانيا. آنذاك كانت مؤشرات هزيمة الألمان قد باتت واضحة، ومع كل نصر للجيش الأحمر كانت تقترب مع زوجها وابنهما المولود في الاتحاد السوفيتي أكثر فأكثر من العودة إلى ألمانيا. عندما قرأت يوميات رئيس البلدية هذا انتابها شعور بالقرف، مما تبيَّن لها بعد متابعتها القراءة أن هذا الموظف الألماني استمر محافظًا على منصبه، وبقي في مكتبه مديرًا لشؤون البلدة حتى دخول الجيش الأحمر، ثم هرب نحو الغرب. وعلى الرغم من ذلك ثمة جملة لم تستطع نسيانها قَطُّ: إنه يريد

العودة إلى الوطن، إلى الوطن فحسب، هكذا صرخ، مثل طفل مستعد للتنازل عن كل شيء في سبيل ذلك، كي لا يرى ما يراه، ولكن في تلك اللحظة القصيرة تحديدًا، وكأنه قد غطى عينيه بيديه، كان هذا الموظف الألماني المتمسك بأداء واجبه يعرف أن الوطن هناك ما عاد من الممكن إطلاقًا أن يسمى بافاريا ولا شاطئ بحر الشمال أو برلين. لقد تحول الوطن في سياق الزمن الذي انقضى، فلم يعد من الممكن قَطُّ التعرف على ألمانيا كشيء ملموس، لأنها باتت بلا جسد في الفكر الضائع الذي لم يعرف شيئًا من كل هذا الهول، وما كان بمقدوره تصورها. «و-ط-ن». انتظر فحسب إلى حين. بعد عبوره مرحلة شك قصيرة ومن أجل النجاة بنفسه رشح الموظف الألماني نفسه لهذا المنصب. أما أولئك الذين هربوا من الوطن مخافة تحولهم إلى وحوش، فإن ما كان يصل إليهم من أخبار عن الوطن قد جعلهم في حالة من النفي الدائم كما يبدو، وليس في أثناء سنوات المهجر فقط، وبصرف النظر عما إذا كانوا قد عادوا أم لا. أريد العودة إلى الوطن وحسب، هذا ما فكرت به كثيرًا حينذاك وهي توجه رصاص كلماتها من الأورال نحو الوطن. أما هي التي ما عاد أي بلد يعني لها الوطن، إنما الإنسانية بمنزلة الوطن، فقد بقي الشك في نفسها حنينًا إلى وطن.

قامت صباح اليوم مع زوجها بمشوارها الطويل مشيًا حتى أعالي الغابة، حيث المقعد الذي حفر ابنهما في خشبه قبل سنوات الحروف الأولى من اسميهما بسكين الجيب، وقد جعل الزمن الحروف رمادية. كانا دائمًا يرتاحان قليلًا على هذا المقعد قبل أن يعودا، يجلسان وينظران، يتابعان بأعينهما ميلان الهضبة الناعم حتى البحيرة، يريان لعب الريح في حقل الذرة ومساحة البحيرة الشاسعة من ورائه ولكأنها قد صُبَّت من رصاص. لكنهما لا يريان من هذه المسافة لعب الريح نفسها بسطح الماء، ولا يريان بيتهما ما بين الهضبة والبحيرة والقائم من منظورهما في ظل جبل الرعاة. ينظران إلى الأرض القريبة تحت أقدامهما مباشرة حيث ضغطت أمطار الأمس الرمل إلى مسيلات صغيرة، ويريان حجارة النار والكوارتز والصوان، ثم ينهضان، تشبك ذراعها بذراعه ويهبطان الهضبة عائدين إلى البيت، حيث يريد اليوم طلاء كراسي صيد السمك باللون الأخضر بعد أن تساقط الطلاء الأحمر القديم، فيما تجلس هي إلى مكتبها في الطابق العلوي لتدوِّن مذكرات حياتها.

عندما عادت إلى ألمانيا لم يكن هذا الطبيب قد وُلد بعد. لكنه سافر في وفود حكومية بعدئذ إلى اليابان، وكذلك إلى مصر وكوبا. «أ-ن-ا أ-ع-و-د إ-ل-ى ا-ل-و- ط-ن». الطباخة تقرقع تحت بأدوات الطعام، والبستاني يجلس على عتبة غرفته، وعلى المرج تتراشق حفيدتها بالماء مع ابن الجيران، زوجة ابنها تتشمس على اللسان الخشبي، والزائرة تستلقي على كرسي الشاطئ، ابنها يحشُّ المرج، وزوجها يطلي كراسي صيد السمك باللون الأخضر. ثمة أمور مما تتذكره لا تدوِّنها. فلم تكتب أنها قالت: «لا» لرفيقة ألمانية، على إثر غزو

هتلر للاتحاد السوفيتي، كان زوجها قد اعتقل للتو والتجأت إليها مع طفلها الصغير لتختبئ عندها. قالت لها: «لا»، لأن إذن إقامتها كان منتهيًا وكانت هي نفسها مضطرة إلى الدخول لمقر إقامتها في موسكو والخروج منه من دون أن يراها أحد. ولم تكتب أن مسودة برنامجها الإذاعي عن العمل اليومي لذلك الموظف الألماني قد صححها الرفاق السوفييت، إذ حذفوا المقطع المتعلق باليهود بحجة أن لا تأثير له في الجنود الألمان، بل قد يؤذي القضية، ولهذا فلا أهمية له. وهي التي لم تهاجر بسبب أمها اليهودية، وإنما لكونها شيوعية، حذفت هذا المقطع من برنامجها من دون اعتراض. ولم تكتب أنها أخذت تصبغ شعرها الأحمر النحاسي الذي كان موضوع سخرية في طفولتها بوصفها يهودية، وقد بدأت بذلك بعد اختفاء عدد من الرفاق المعروفين من ذوي الأصول اليهودية. ولم تأتِ على ذكر أن رفاقها ورفاق زوجها السوفييت قد أمروهما بركوب قطار متوجه إلى نوفوسيبرسك، لكنهما اختبآ بدلًا من ركوب القطار، إذ إن رسامًا ألمانيًّا صديقًا كان قد نفذ أوامر الحزب وركب مثل هذا القطار، فمات جوعًا في بناء سد مائي في كازاخستان. وبينما يطلق الوقواق في الخارج نداءاته تركن أصابعها إلى الراحة على أزرار الآلة الكاتبة.
نظم الشاعر الذي خبَّأته عندها آنذاك قصيدة، وصف فيها الذهاب إلى الوطن كانتقال إلى شاطئ الموت. لقد تعلموا السكوت آنذاك، وكان هذا السكوت، بعد كل أنواع الحرمان، أكبر هدية في حلمهم، الذي بقي كبيرًا بحيث إن كل رفيق من الرفاق كان وحيدًا تمامًا عندما يتجول فيه.
يسكن الشاعر الذي خبَّأته عندها آنذاك في بيت صيفي مع زوجته على الطرف الآخر من البحيرة. قد يرسوان بعد ظهر اليوم عندهم على اللسان الخشبي بالقارب ذي المحرك والمصنوع من خشب داكن لماع. وعندها سيرمي الصديق الحبل إلى زوجها الذي سيمسك به، ويثبته بعقدة إلى اللسان الخشبي، وعندها ستراقب الحفيدة جدها بانتباه، وهو يعقد الحبل على شكل ٨ حول إحدى دعائم اللسان الخشبي.
«أ-ن-ا أ-ع-و-د إ-ل-ى ا-ل-و-ط-ن». الممثل الذي بنى لنفسه بيتًا صيفيًّا من طابق واحد، بعد حديقتين مجاورتين، سافر مع الفرقة قبل مدة قصيرة لتقديم عروض في ألمانيا الغربية وبقي هناك، وقريبًا سيسحب إليه زوجته وابنه. بيته الصيفي مختوم بالشمع الأحمر. أراد لحمَّامه بورسلين بلون أزرق فاتح. وفي هذا الجزء من ألمانيا لم يوجد بورسلين أزرق فاتح. لا يستطيع الإنسان الجديد أن يبدأ إلا إذا استيقظ من القديم. الوقواق يرسل نداءاته. على العالم الجديد أن يلتهم القديم، والقديم يقاوم. الجديد والقديم يعيشان معًا في الجسد نفسه. عندما تطلب كثيرًا يزداد النقص.
عند عودتهما إلى ألمانيا، هي وزوجها، طال بهما الوقت وهما غير قادرين على مصافحة أناس لا يعرفانهم. كاد قرفهما يكون جسديًّا من أولئك الذين بقوا بملء إرادتهم. حتى إن زوجها قد تردد بعد عودته من زيارة أمه وأخواته

اللواتي يعشن في غرب ألمانيا. وكانت المرة الوحيدة التي زارا فيها تلك المدينة في الغرب من أجل أن يرى ابنهما جدته، ومع ذلك فإنهما عند اللقاء لم يصافحا الأم ولا الأخوات. وقد لاحظا أن الاستغناء عن المصافحة كان موقفًا متبادلًا من الجهتين. قبل هروبهما من ألمانيا مباشرة كانا قد أودعا عند أخوات زوجها في براج لوحة وبعض قطع الأثاث. والآن كانت أمه وأخواته يجلسن إلى الطاولة نفسها وعلى الكراسي نفسها، واللوحة كانت معلقة على الجدار. حتى هي وزوجها جلسا على الكراسي نفسها وكأنهما في زيارة لبيتهما. لم يجد الشيوعيان الكلمات للمطالبة بما يخصهما من أولئك الألمان الذين كانت تربطهما بهم قرابة ذات يوم. وفيما بعد عندما صار الابن فتى قادرًا على السفر بالقطار وحده، سمحا له مرتين بالسفر إلى جدته.

ها هو الصنج الآن يدعو إلى المائدة. مشت عبر غرفة الخزانة والدهليز إلى الحمَّام، حيث غسلت يديها. كانت رؤوس أصابعها ملوثة ببقع سوداء من تبديل شريط حبر الآلة الكاتبة. نظرت في المرآة، رتبت شعرها وأغلقت الدرفة اليمنى للنافذة الصغيرة التي فتحت للتهوية. وأخيرًا اكتملت ألواح الزجاج المربعة والملونة كالموزاييك. قبل أن تنزل إلى المائدة دخلت ثانية بسرعة غرفة العصفور لتأخذ جاكيتًا من الخزانة الجدارية، فالجو في البيت حتى في عز الصيف يكون دائمًا أبرد من المتوقع. اكتسبت غرفة العصفور الصغير اسمها من العصفور الحديدي الصغير الذي يزين درابزين البلكون، وفي العطلة المدرسية تسكنها حفيدتها التي تقرع الصنج الآن تحت للمرة الثانية، إما لنفاد صبرها أو ببساطة لأن الأمر يسليها.

حتى ظهرًا تسقط على مائدة الطعام الطويلة أنصاف ظلال بدلًا من النور عبر زجاج النوافذ الملون. وحول هذه المائدة يجلس زوجها، وابنهما وزوجته والحفيدة، غالبًا إضافة إلى أصدقاء وزملاء من برلين ورفاق، أو كما هي الحال اليوم، الزائرة والطباخة، وأخيرًا البستاني. قبل تناول الحساء يطرق زوجها هذا وذاك الموضوع، وابنها موضوعًا ثالثًا، فتعلق زوجته بشيء ما، فيما تصمت الزائرة والبستاني وتوزع الطباخة الوجبة الرئيسية، فتضيف هي إلى تعليق زوجة ابنها التي تسأل عن بعض الأمور، فيقول الابن: ـ أجد الأمر مستحيلًا.

فيرد زوجها:

ـ لكنه يحصل.

فتقول:

ـ أمر يلفت النظر.

وتضيف مخاطبة الزائرة: ـ هلَّا أخذتِ مزيدًا من حبات البطاطا؟

فتجيب الزائرة:

ـ لا، شكرًا.

البستاني يصمت والحفيدة تهز برأسها. يقول الابن: ـ إليَّ بها.

وتقول زوجته:

ـ كان الطعام لذيذًا جدًّا.
فتقول هي:
ـ كان لذيذًا حقًّا.
يقول البستاني:
ـ شكرًا.
وتقول الطباخة:
ـ كان الحساء مالحًا قليلًا.
فيعلق الابن:
ـ أبدًا أبدًا.
تضع الطباخة الصحون المتسخة فوق بعضها، وتحملها برشاقة إلى المطبخ، لتعود منه حاملة على صينية زبدية مملوءة بخشاف الفواكه، وتسكب منه للجميع الذين يملأون به ملاعقهم ويأكلون. يسود الهدوء ثانية. تضغط قبضة الباب نحو الأسفل من الخارج فتصدر تأوهًا معدنيًّا. إنه ابن الجيران الذي يريد اللعب مع الحفيدة خارجًا. يقف عند المدفأة الحجرية وينتظر حتى ينتهي الجميع من الأكل. تضع الزائرة صحن الخشاف على شفتها وترتشف العصير. تقول زوجة الابن للصغيرة: ـ تساعدين في لمِّ المائدة أولًا ثم تلعبين.
ويعلق الابن:
ـ هيا إذن.
أما هي فتعطي الطباخة إشارة بهز رأسها. ينهض الجميع ويغادرون المكان، كلٌّ في اتجاه.
«أ-ن-ا أ-ع-و-د إ-ل-ى ا-ل-و-ط-ن». لا، إنها لم تعُد مع زوجها إلى الوطن، بل أرادا استعادة هذا البلد في أفكارهما، وشاءت المصادفة أن تكون لغته هي التي يتكلمانها. أرادا أن يسحبا من تحت الأنقاض الألمانية أرضًا ليقفا عليها أخيرًا، أرضًا لم تعد مخادعة. صحيح أن جسميهما قد هرما، لكن ما بقي فتيًّا ولوقت طويل هو الأمل بخلاص الإنسانية من الجشع والحسد، وبأن تكون أخطاء الفانين فانية، أما أعمالهم فخالدة. والآن لا بد أن يأتي هذا الطبيب الشاب تحديدًا، الذي يفحص جسميهما الهرمين مرة في السنة، ليستخدم الدولة كي يرث مؤسسي الدولة. وها هو الجيش اللامرئي ينقسم على نفسه ثانية، فتصطفق حرابه وتروسه اللامرئية بعضها ضد بعض من دون صوت. من المحتمل أن الشباب الذين لا يعرفون العدو إلا من أخبار العجائز، وليس وجهًا لوجه، قد ينحازون فعليًّا إلى مواقعه وسريعًا، ليتحرروا من الحصار أخيرًا ويصبحوا أكثر وضوحًا وإقناعًا.
هل هرمت الكلمات أيضًا في فمها الذي بات هرمًا من دون أن تلاحظ ذلك؟
مساءً بعد العشاء تنصب كراسي الحديقة في البهو، لكي يرى الجميع معًا أخبار التلفزيون: هي وزوجها، ابنهما وزوجته، الحفيدة، الزائرة، بعض الأصدقاء الذين ينامون في مشلح السباحة، والطباخة أحيانًا. يتحدث المذيع في أخبار

السابعة مساءً عن جمع المحصول، وتُعرض على الشاشة صور فلاحين يقفون في الغبار بين أكوام الجُذامة ويتحدثون عن واجب تنفيذ الخطة، وتعرض صور الدرَّاسات وصوامع الحبوب. والكلمات الغريبة التي لم تدُر على ألسنتهم بالفطرة كان الفلاحون يتركونها وراءهم في غبار الحقول، في حين كان يجب أن تكون لب الحديث. منذ عودتها إلى ألمانيا كرست كل حماستها لتجعل من ذكرياتها، عبر الحروف، ذكريات للآخرين أيضًا، أن تنقل حياتها على الورق، مثل عبَّارة، إلى حيوات الآخرين. نقلت بالحروف أمورًا كثيرة، بدت لها أهلًا للحفظ، ودفعت بأمور أخرى إلى الأعماق، مما آلمها. والآن ما عادت تعرف ما إذا كان الخيار في ذاته هو الخطأ، فما كانت تراه طوال حياتها نُصب عينها الداخلية، كان يجب أن يكون عالمًا كاملًا، وليس نصف عالم.
بعد بضعة أيام جاءها في كتاب رسمي من إدارة البلدية أن بإمكانها أيضًا امتلاك بيتها الصيفي شراء، ولكن ليس الأرض التي بني عليها، أما بشأن مشلح السباحة، فيمكن نقله إلى المرج العلوي على حساب الدولة إذا رغبت في ذلك، لكي تمنح الطبيب ممرًّا إلى البحيرة وبما يرضيها في الوقت نفسه. سحبت الصفحة من الآلة الكاتبة، بما كُتب عليها وما لم يُكتب ووضعتها على الكدسة الصغيرة من صفحات كتابها الجديد. تناولت من الدُّرج ورقة رسائل فاخرة، ركبتها في الآلة الكاتبة وأجابت إدارة البلدية أن نعم، إنها ترغب طبعًا في شراء بيتها، وترغب بطبيعة الحال في أن ينقل المشلح إلى الأعلى. مع تحية اشتراكية.

البستاني

صمدت شجرة الجوز التي صُبَّ فيها الأسمنت واقفة طوال ثلاث سنوات، ولكن بما أنها لم تعد تثمر فقد قطعها البستاني بطلب من سيد البيت، ونشر الجذع بالمنشار، وفلق القطع بالفأس إلى حطب صفه فوق بعضه في مستودع الخشب. في أثناء جمع ثمار الكرز سقط البستاني عن السلم فكُسرت ساقه، وكان لا بد من أن يستلقي مدة شهرين حتى يلتحم العظم ويبدأ تعلم المشي ثانية. ولحسن الحظ أمضى ابن سيد البيت إجازته كلها، ولأول مرة، في البيت الصيفي. لقد تجاوز سن المدرسة الداخلية وعاد ليسكن مع أبوَيه، وقد كبر خلال هذه المدة وبات قويًّا بما يكفي للقيام بحش الحشيش. غير أن الفطور التي هاجمت في هذا الصيف جميع أشجار الفاكهة بقيت طويلًا من دون أن يلحظها أحد، بسبب غياب البستاني الذي حالما تمكن من النهوض مجددًا وجد أن جميع أشجار التفاح والإجاص قد يبست جذوعها.

لم يعد البستاني بعد حادثة سقوطه قادرًا على إنجاز الأعمال الصعبة، فبات بمشيته البطيئة يجول في قطعة الأرض ليجمع من هنا وهناك الأغصان اليابسة المتساقطة، وليقص ما جف من الورد والأزهار والشجيرات، وليسقيها مع الورد مرتين يوميًّا، مرة مع الفجر ومرة مع بداية الغسق. وكان مع بداية الشتاء يفرغ جميع تمديدات المياه في البيت ويغلق الصنبور الرئيسي، ويغلق جميع مصاريع النوافذ، سواء في البيت أم في مشلح السباحة تحت على شاطئ البحيرة.

أخذ سيد البيت مع ابنه على عاتقيهما الآن عملية فك وتركيب اللسان الخشبي السنوية. وإضافة إلى المدفأة الحجرية رُكِّب في البيت جهاز كهربائي لحفظ الحرارة ليلًا، بحيث صار الحطب في السنوات الأولى يكفي لتدفئة البيت في أيام الخريف والربيع الباردة. وفي السنوات اللاحقة أيضًا، لم ترتح أشجار التفاح والإجاص من الإصابة بالفطور. وهاجمت حشرة السوس أشجار الكرز. وعند توسيع بئر المرحاض ظهر أن الأنابيب الممدودة لري مرج أشجار الفاكهة قد صدئت كلها، وأنابيب المياه غير متوفرة حاليًّا في المتاجر الخاصة. ولأول مرة طُرق موضوع تصغير الأرض المستأجرة وفق مبدأ الضمان.

في القرية صار يُحكى عن أن ابن سيد البيت كان بعد حفلات الرقص أو ما شابهها من احتفالات يأخذ هذه أو تلك الفتاة من القرية إلى مشلح السباحة لقضاء الليلة هناك معها، وفي مثل هذه الليالي كان البستاني يحرسهما جالسًا على مقعد تحت السقف الذي يظلل المدخل، كي لا تنتبه سيدة البيت لما يجري. ونُقل عن لسان البستاني أن الابن عندما خطب أخيرًا صبية برلينية أصرت أمه على أن تقيم في المشلح عند زيارتها الأولى للبيت الصيفي، كي لا

تقدم دليلًا ماديًّا لاحتمال تهمة الزنى. كان سكان القرية يضحكون من هذا التصرف.
بعد زواج ابن سيد البيت أنجبا الطفلة، ما إن صار عمرها ستة أسابيع حتى صارا يحضرانها معهما إلى البيت الصيفي في عطلات نهاية الأسبوع، ويضعان عربة الأطفال مع الرضيعة النائمة تحت الزعرور البري على طرف المرج الصغير. والبستاني يجول في قطعة الأرض وفي طرف فمه بقية سيجار مطفأ أو مشتعل، يجمع الأغصان الجافة من هنا وهناك، وينصب مرش الماء عندما ترتفع درجة الحرارة لسقاية الأحواض والمرجين، مرة قبل الظهر ومرة مع حلول المساء.
عندما لم يعد البستاني قادرًا على ضغط مقص الأغصان الكبير، حلت محله الزوجة الشابة في تقليم الشجيرات خلال الربيع والصيف. ولما لم تعد أشجار الفاكهة تثمر، طلب سيد البيت فلاحًا لينشرها ويفلق جذوعها وفروعها إلى حطب ويرتبها فوق بعضها في مستودع الخشب، فيما يجلس البستاني ساعات طويلة على عتبة المنحل وفي فمه بقية السيجار المُطفأ نفسه. وما تبقى من خلاياه الاثنتي عشرة السابقة ما زال، بعد استئصال أشجار الفاكهة، يطير لبرهة من الزمن حول الجذوع المقتلعة، ليتفرق من ثَمَّ بحثًا عن مرتع تبني فيه خلايا جديدة في الغابات المجاورة. أحيانًا تجلس الحفيدة إلى البستاني مع رفيقها من الجوار، فيريهما الحشرات التي تعيش في الحطب القديم مثل أم أربع وأربعين وما شابهها، ويريهما كيف يمكن تحويل قضبان البيلسان السوداء المفرغة إلى آلة نفخية، أو كيف يمكن العزف بأوراق الليلك.

الزائرة

المهم في الأمر هو أنها هنا تستطيع أن تسبح مجددًا. لم تكن تعلم في زيارتها الأولى أن قطع البورسلين الموجودة على المائدة مخصصة لوضع أدوات تناول الطعام عليها في أثناء الوجبات. بالإضافة إلى أنها أخفقت في محاولة قطع خبز الفطور بالشوكة والسكين، وكانت تأمل بمحاولتها أن تعوض عن جهلها الذي تبدى في أثناء غداء الأمس. وفي الحالتين ظهرت على وجه المضيفة الابتسامة نفسها مصحوبة باللمسة الخفيفة نفسها بيدها الباردة لذراع الزائرة، قائلة إن الخبز قيم جدًّا إلى درجة تجيز للإنسان أن يتناوله بيده. هناك، من حيث أتت الزائرة، لم تكن مضطرة في أي وقت من الأوقات إلى التفكير فيما إذا كان الخبز قيمًا إلى درجة تجيز للإنسان أن يتناوله بيده. فهناك كانت تزرع الحبوب بنفسها وتتعامل معها بالأسلوب نفسه دائمًا، بدءًا بالبذار مرورًا بالحصاد إلى الخبز ثم الأكل. أما هنا فلم يتبقَّ سوى تناول الخبز الجاهز كجلد فوق حشوة غريبة، مثل إوزة عيد الميلاد. هنا، في هذا البستان، وبصورة مختلفة تمامًا عن البستان الذي كانت تملكه، لا يوجد ما تبذره ولا ما تحصده. هنا تنتصب أشجار الصنوبر والبلوط، وفي ظلالها تنمو الشجيرات ببطء، البستاني يرش الحشائش بالماء، والأزهار تبرعم لعدة سنوات، وبَقلة الشَّبت اللازمة لطهو البطاطا تجلبها الصغيرة من الجارة عند بداية الطريق الرملي. هنا في هذا البستان يأتي الجميع لهدف واحد فقط، هو أن يكونوا في بستان وحسب. والأرجح هو أنها قد وصلت في الوقت المناسب من حياتها إلى المكان المناسب، فهي أيضًا ما زالت تعيش الحياة كي تكون حية وحسب. لقد سمعت أن الناس في أماكن أخرى يضعون العجائز مثلها على شجرة ويتركونهم ليموتوا جوعًا، أما في الوقت الحاضر فقد صار الناس يمنحون العجائز نقودًا أيضًا، كي يستمروا في العيش، حتى وإن لم يعودوا قادرين على العمل. أما هي فلن يمكنها أبدًا التعود على هذه النقود التي تمنح لها شهرًا فشهرًا مقابل ألا تعمل شيئًا. وفي هذا البستان لم يعد أمامها ما تعمله سوى الجلوس، أن تجلس في عز النهار ويداها في حضنها لتتابع طيران القُبَّرات. «لا تضيِّعي الوقت»، سمعت نفسها تنادي بهمس وهي جالسة، «لا تضيِّعي الوقت»، مثلما كانت تصيح من شباك المطبخ لابنتها التي كانت تثرثر مع ابنة الجيران في الفناء، إذ كان على الابنة أن تجلي الأواني أو أن تنظف السمك أو أن تنتف ريش الدواجن، وكانت الابنة تأتي من فورها دائمًا. أما يداها هي الآن فما زالتا راقدتين بهدوء في حضنها، وفي أثناء جلوسها هكذا كانت تسمع زوجها يعزف على الأكورديون، في حين يصمت والداها ويثرثر الأحفاد، فتجيب بصوت غير مسموع أو تواسي أو تغني بلا صوت أو تصمت

وحسب. والأمر المهم هو أنها عندما يحل المساء تستطيع أن تسبح مجددًا في هذه البحيرة الباردة ذات البريق الأخضر، مثلما كانت تفعل في موطنها تقريبًا. الأفضل في جميع الأحوال أن يكون الإنسان غريبًا في الغُربة. لقد خرجت مرة ثانية من المدينة التي لجأت إليها في بادئ الأمر، مشيًا مع الأحفاد الثلاثة عائدة إلى مزرعتها. لكنها مشت مسافة ثلاثين كيلو مترًا في الاتجاه الخاطئ، واشتغلت مدة قصيرة خادمة عند البولونيين الذين كانوا في تلك الأثناء قد وضعوا أيديهم على دارها. لقد خدمت في دارها على أمل أن تجدها ابنتها عندما تعود من عملها الطوعي إلى الدار. وحفيدها الصغير أراد أن يخرج لعبة جرار كان قبل بضعة أسابيع عند الهروب قد حفر حفرة وطمرها فيها في طرف الفناء، لكنها منعته من ذلك. الابنة لم تعُد، ولم يصل إليها منها سوى صورة العرس التي اعتادت أن تحملها معها دائمًا، وقد وصلت إليها بطرق غير مباشرة وفي حالة مزرية، مثنية الأطراف، وعلى وجهها الخلفي ملاحظات بحروف سلافية. على الطريق عبر البستان إلى الكنيسة علقت طرحة العروس بأغصان شجيرات «عنب الذئب» (١٤)، فاضطرت العروس إلى الزواج بطرحة ممزقة. ولكن من أجل التقاط الصورة رتبوا الطرحة فلم يعد الشق باديًا للعيان. لم تعُد الابنة إلى الدار، والأم التي باتت الآن جدة وحسب غادرت المكان للمرة الثانية مع الأحفاد الثلاثة، إذ كان الأفضل في جميع الأحوال أن تكون غريبًا في الغربة وليس في دارك.

إن زهرة الهندباء البرية هي نفسها في الوطن، والقُبَّرات كذلك. الآن وقد صارت عجوزًا تلبَّستها الجملة التي كان زوجها يرددها دائمًا قبل أربعين سنة. زهرة الهندباء البرية في قريتها هي نفسها زهرة الهندباء البرية في موطنه، في أوكرانيا، من حيث جاء مشيًا، والقُبَّرات كذلك، هذا ما كان يردده دائمًا. وفي بافاريا، من حيث هاجر أسلافه إلى روسيا، وإلى حيث انتوى أساسًا الهجرة المعاكسة، من دون أن يعرف عن هذا الوطن سوى اسمه، هناك لا شك في وجود زهرة الهندباء البرية والقُبَّرات. ولا ريب في أن أسلاف زوجها قد رددوا أيضًا هذه الجملة قبل سبعين أو ثمانين سنة. وهي تتساءل عما إذا كانت الجمل تأخذ طريقها إلى البشر أم بالعكس، أم هل تنتظر الجمل فحسب حتى يستخدمها أحدهم، وتتساءل في الوقت نفسه إن لم يكن ثمة ما تفعله أفضل من التساؤل عن هذه الأمور، واللف والدوران، فكرت برهة ثم عرفت مجددًا أنه ليس أمامها ما هو أفضل من ذلك. نظرت إلى الكرسي الواطئ الذي رفعت عليه ساقيها المقوستين، فوجدت أنه مغطى بالجلد الاصطناعي الأحمر نفسه الذي يغطي المقعد الذي تجلس عليه. فكرت بأنه قد يأتي يوم يصل فيه الناس إلى الجمل كلها، ومرة يقولها هذا ومرة ذاك، مرة هنا ومرة هناك، كما في حالة هروب، حين يصبح كل شيء ملكًا للجميع، فطبيعة الأشياء والبشر في واقع الأمر، كانت من منظور الحياة، مشابهة دائمًا

لحالة هروب، فالفقر في السلم يدفع البشر أمامه وكأنهم صف طويل من أحجار الدومينو، وفي الحرب تقوم الجبهة بالفعل نفسه، أحدهم ينام في أسرَّة الآخرين ويستخدم أدوات طبخهم، ويأكل زوادتهم التي اضطر الآخرون إلى تركها خلفهم، وكلما يزداد سقوط القنابل تصبح الغرف أشد ضيقًا. وفي نهاية المطاف وصلت الجدة إلى هنا، إلى هذا البستان. وعندما يدعوها قرع الصنج إلى الطعام تعتقد أن من الجائز لهذا الصنج أن يكون قد دعاها آنذاك عندما أدارت ظهرها نهائيًّا لدارها، ومشت على الطريق بصحبة أحفادها الثلاثة ولحاف محشو بالريش وقدر للطبخ مزين ببقع زرقاء. ترى هل يبقى معنى الهروب هروبًا عندما يصل الإنسان؟ وعندما يكون الإنسان هاربًا، فهل يصل ذات يوم؟

مات زوجها قبل أن يحدث هذا كله. وعندما تعود في ذاكرتها إلى ما قبل موته، إلى حادثة حصَّادة البرسيم، يبدو لها الأمر وكأن موته حينذاك قد أتى من مدخل جانبي من دون أن يعلن عن نفسه، وتمزَّق طرحة عرس ابنتها كان أيضًا إشارة دخول لما سيحدث، عبر مدخل جانبي، ولأن الزمن حينها كان مفتوحًا على كل ما هو آتٍ، لم يكن بمقدورها بعد أن تتوقعه. والآن، وهي عجوز، وتعيش فقط لتبقى على قيد الحياة، فإن كل شيء موجود في الوقت نفسه. الآن وهي عجوز، يبدو لها محتملًا أن إصابة زوجها كانت السبب في حبها له، وأن الموسيقى التي كان يعزفها عندما وصل إلى قريتها يُحتمل أن ترتبط جذورها بموته المبكر، ومن ناحية أخرى يحتمل أيضًا أن ابنتها التي كانت حاملًا بها، كانت تجلس معها في التنور ممسكة بيدها، عندما حبستها هناك بسبب حبها للغريب، لوالد الطفل الموجود في رحمها. وعندما ينظر الإنسان إلى الأمر من هذه الزاوية يبدو مؤكدًا أنها كانت السبب في قدوم الغريب حتى قبل أن يعرفها. وفي خلال استرجاعها الماضي يتآخى الزمن مع نفسه ويصبح مسطحًا، فالأمور لا تتتالى بعضها وراء بعض إلا عندما يكون الإنسان على قيد الحياة، كي ينزع شوكة من قدم طفل، أو كي يُخرج اللحم المشوي في الوقت المناسب من الفرن، أو لكي يخيط ثوبًا من كيس بطاطا، ولكن خطوة فخطوة يتناقص متاع الإنسان خلال الهروب ويزداد ما يخلفه وراءه، وفي لحظة ما يقف الإنسان ويجلس فحسب، وعندها لا يكون قد تبقى من الحياة سوى الحياة، وكل ما عدا ذلك يبقى مرميًّا في حفر كثيرة في شوارع كثيرة في بلد كبير كالهواء، ولا شك هناك بوجود مثل زهور الهندباء البرية هذه والقُبَّرات.

«لا أقبل أن تتزوجي مثل هذا الرجل»، قالت لها أمها وحجزتها بضعة أيام داخل التنور، وعندما وضح أنها حامل أفرجت عنها أمها، ولم تقل لها سوى: «كان بوسعك أن تحصلي على ساعي البريد، على حارس الأحراج أو على كبير معلمي السماكين». أما زوجها فقد بدأ بصيانة آلات الفلاحين ليوفر المال للعائلة، وكان من بين الآلات حصادة البرسيم. ومنذ ذلك الحين لم يعد يعزف

موسيقاه إلا لمتعته الخاصة أو من أجل زوجته. ولكن بعد أن قطعت أربع أصابع من يده اليسرى بحصادة البرسيم لم يعد بوسعه العزف على الكمان ولا على الأكورديون، فقد بترت حصادة البرسيم مع أصابعه موسيقاه أيضًا. وكانت موسيقاه التي عزفها حتى وقوع الحادث ذات أصول أوكرانية، من حيث أتى مشيًا. وبعد إصابته صارت يده دائمًا باردة جدًّا، لذلك خاطت له زوجته غطاءً مبطنًا بالفرو، صار يلبسه على يده سنة فسنة من أيلول (سبتمبر) حتى أيار (مايو). وخلال سنواته الأخيرة صار يجلس كثيرًا، مثلها الآن، ويده في حضنه داخل الغطاء، على الرغم من أنه ما زال شابًّا. وعندما مات، في أوائل أربعينياته، لم يطاوعها قلبها على رمي غطاء يده المبطن بالفرو، لكنها عند الهروب تركته وراءها في الدار.

هنا يمكنها أن تسبح كما في وطنها. والسباحة ما زالت أمرًا سهلًا، على نقيض المشي الذي لم تعد عظامها تصلح له منذ مدة طويلة. ومساءً حين تفك رباط شعرها الأشيب قبيل أن تدخل سريرها يكون شعرها ما زال مبتلًّا. في أيام صباها في الصيف كانت تقطع البحيرات «المازورية» (١٥) سباحة وغطسًا، واصطادت فيها السمك، وفي الشتاء كانت تتزلج على سطحها وقد ثُبتت شفرتا التزلج بالبراغي أسفل الجزمة ذات الأربطة. لقد تولعت بالبحيرات واغتسلت فيها وشربت منها وأكلت من أسماكها وخلفت وراءها خدوشًا في جليدها، كان تعاملها مع البحيرات مثل تعامل ابنتها، لاحقًا، مع العجين لشدة ولعها بعملية الخبز، إذ كانت تدعك عجين الحلوى أربعمائة مرة بيديها الاثنتين قبل أن تدخله إلى التنور. وحتى اليوم ما زالت عظام قصبتَي ساقيها زرقاء وقرمزية، بسبب أربطة الجزمة التي كان لا بد عند التزلج من شدها بقوة، زرقاء وقرمزية ولماعة كالحجر من ضغط الأربطة عليها طوال ساعات وهي مندفعة على سطح البحيرات المتجمد، الذي كان يئن من الخدوش التي تسببها شفرتا زلاجتيها. والآن ها هما ساقاها المقوستان بعظامهما الزرقاء والقرمزية واللماعة راقدتان على الكرسي الواطئ ذي الجلد الاصطناعي الأحمر المخصص لرفع الأقدام عليه، وهما ما زالتا ساقيها حتى اليوم. إنها لا تعرف كيف تبدو البحيرة هنا في الشتاء. وسيدة البيت أطلقت على بيتها تسمية «منتجع الصيف». في الشتاء لا يبقى هنا سوى البستاني في غرفته، وما سوى ذلك يبقى فارغًا، فيُحكمون إغلاقه تحسبًا لفصل الشتاء، ويقفلون درفات النوافذ، ويضبطون السخانات الليلية على الدرجة الأدنى، ثم يغادرون إلى المدينة بالسيارة. كان زوجها في الشتاء أيضًا يصيد السمك بالصنارة، وكان دائمًا بين أوائل الذين يقفون على الجليد قبل أن يتجمد تمامًا، فيبدو مثل كائن صغير أسود جالسًا من دون حراك في غَلَس الفجر أو الغسق. ولتدفئة الدار شتاءً كانوا يستخدمون الحطب، فيشعلون النار بسلخات الصنوبر حتى تتقد جيدًا ثم يوقدونها بحطب الزان والبلوط،

فالخشب الصلب يطول اشتعاله. وعندما كانت المضخة في الدار تتجمد كانوا يجلبون الماء من ثغرة في جليد البحيرة يفتحها زوجها قرب الشاطئ. وهي ترجِّح أن الإنسان لم يخترع الكراسي الواطئة لرفع الأقدام عليها إلا عندما بدأ يختار ما يلائمه من الفصول لقضاء إجازته. هنا أولًا، في هذا الوقت، حيث تجلس زائرةً لما تبقى من حياتها.
صغرى أحفادها الثلاثة كانت حولاء طوال طفولتها، وقد التحقت بالمدرسة حليقة الرأس بسبب إصابتها بالجرب، كما كانت أقل الأحفاد مهارة، فعندما قفزت فوق الجدول سقطت في الماء، وعادت إلى الدار بثياب يعلوها العفن الأخضر. هذه الصغرى تزوجت ابن سيدة البيت وصارت الآن ترمي المنشفة على كتفيها وتنزل إلى البحيرة على الدرجات الحجرية بحذائها الخشبي، ملوحة لجدتها بيدها قبل أن تختفي وراء دغل شجيرات التنوب الكبير. وهي قد تجالس جدتها أحيانًا وتثرثر معها قليلًا، وتدهن أصابع قدميها بطلاء أحمر. وجدتها التي كان طقم أسنانها يتقلقل أحيانًا في أثناء تناول الطعام، كانت تخجل من حفيدتها هذه أكثر مما تخجل من سيدة البيت. فهناك، حيث تعلمت من العجائز كيف تشيخ، لم توجد أطقم أسنان اصطناعية، وعندما يصير الإنسان عجوزًا كان فمه ببساطة يتداعى. أما اليوم حيث تعيش بوصفها زائرة فقد بات الناس يُحكمون إغلاق حتى وجوههم للشتاء.
ليس من السهل أن يكون الإنسان زائرًا. في قريتها كان الإنسان يرفض الهدية ثلاث مرات بلا نقصان قبل أن يقبلها، وإذا قبلها فإنه يحضر معه في المرة المقبلة هدية يرفضها الآخر ثلاث مرات أيضًا بلا نقصان، ثم يقبلها فورًا. أصيص زهور مقابل فراولة، أو زجاجة نبيذ منزلي مقابل شريحة لحم من خنزير حديث الذبح، أو تفاح مقابل إجاص. وصديقتها الوحيدة من قريتها والتي انجرفت بعد الحرب إلى برلين أيضًا، ما زالت تجلب لها حتى اليوم في عيد رأس السنة أصيصًا مزروعًا بالبرسيم، ومغروزًا في وسطه دمية صغيرة مصنوعة من الأسلاك تمثل شخصية منظف المداخن. وتكون هي قد جهزت لصديقتها أصيصًا مماثلًا غرزت في تربته منظف مداخن مشابهًا. وعند منتصف الليل يجري تبادل الأصيصين مع منظفي المداخن، وفي صباح أول السنة تحمل الصديقة الأصيص المهدى إليها في الكيس نفسه الذي نقلت فيه أصيصها إلى هنا، وتأخذه معها إلى بيتها. منذ أن تزوجت الحفيدة صارت تأخذ معها جدتها إلى «منتجع الصيف» إلى حماتها. وهذه الحماة تقارب ابنة الجدة سنًّا، اليوم، لو لم تبقَ الابنة في عملها الطوعي إلى أبد الآبدين. وعندما تسأل الجدة حفيدتها عما يجب أن تحضره معها كهدية بوصفها ضيفة، كانت الحفيدة كل مرة تجيب: «أنت واحدة من العائلة». لكن الجدة ليست واثقة من كونها واحدة من هذه العائلة، حيث تستضيفها حماة حفيدتها كل صيف منذ خمس سنوات بكل ود، ولكن من دون أن ترفع الكلفة فيما بينهما في أثناء الحديث. صحيح أن هذه الحماة تنصحها بين الحين والآخر بمرهم لمعالجة الروماتيزم،

وتسألها عن حالة بيتها في برلين، وتقول إنها مستعدة لتعديل هذا الثوب أو ذاك لدى خياطتها من أجلها، لكنها لا تخاطبها أبدًا بصيغة رفع الكلفة. والآن في الصيف الخامس ما زالت الحماة تخاطبها قائلة: «تفضلي حضرتك وتناولي مزيدًا من البطاطا، ألا ترغبين حضرتك ببعض الخضار أو بشريحة لحم؟». وعندها لا تدري الجدة أبدًا فيما إذا كان من اللطف حقيقة هنا أن تقول نعم مباشرة أو حتى أن تمد يدها بنفسها إلى القدور والصحاف وكأنها في بيتها، أم أن من الأفضل التصرف كالغرباء، فترفض ثلاث مرات قبل أن تقبل. بيد أن الزائرة لا تدري أن من واجبها، بوصفها الأكبر سنًّا، أن تبادر هي إلى رفع الكلفة.

في واقع الأمر كان الأيسر لها أن تكون غريبة في الغربة، فقد ألفت أن تكون غريبة من جهتي البوابة الكبيرة التي كانت تشكل الحدود بين دارها والشارع العلوي. فطوال المدة التي كانت فيها الدار ملكًا لعائلتها كانت البوابة الخشبية تبقى مغلقة دائمًا، إلا عندما يريدون إخراج الحليب بالعربة أو إدخال الحشيش المجفف. ولكن عندما وُجدت مبررات لأن تعرض نفسها كخادمة في دارها بالذات، قرعت البوابة نفسها من الخارج باحثة عن عمل عند البولونيين الذين كانوا في تلك الأثناء قد وضعوا أيديهم على الدار. فأن تكون في دارك كان نصف الغربة الأول، من دون أن تدري ذلك حينها عندما كانت لا تزال في دارها، ولنقل الفصل الأول. والمغادرة شكلت النصف الثاني وحسب، أي الفصل الثاني، بمعنى الغربة المرئية من الخارج. وكان كلا النصفين بالحجم نفسه، ويماثل كلٌّ منهما الآخر، فالأمر كله بالتالي هو أن تغلق بوابة وأن تكون إما في الداخل أو في الخارج. وهذا كله كان مألوفًا بالنسبة إليها. ألمانيا بدأت الحرب وخسرتها، ولو أنها بدأتها وربحتها لكان هناك خاسرون آخرون. ولقد تعلمت الجدة الخسارة. الفصل الأول: أن تملك، والفصل الثاني: أن تخسر. وقد استمرت في الخسارة حتى أتقنتها. الأرجح أن الإنسان عندما يتعلم شيئًا ما، يختفي مقابله شيء آخر من رأسه. وعندما سألتها حفيدتها ذات يوم عما إذا كانت آسفة لضياع الدار والبقرات والمُلك كله، لم تفهم السؤال على الإطلاق، فهي قد أنقذت الأطفال، وليس ثمة ما يقال في الأمر أكثر من ذلك.

إنها تتذكر الرجل الغريب الذي قرع البوابة ذات يوم، بعد سنة أو سنتين من وفاة زوجها، ولكن قبل بداية الحرب. فتحت البوابة وسألته عن حاجته، فقال إنه يريد زيارة أخيه، الموسيقي، فقد سمع أنه يعيش في هذه القرية وأنه تزوج. بدت اللغة الألمانية التي استخدمها للسؤال عن أخيه وكأنها آتية من ماضٍ سحيق وغريبة نوعًا ما، مثل ألمانية زوجها المتوفى. «لا»، قالت له، «هنا لا يوجد موسيقي». فسألها إن كان لديها ما تسقيه إياه، فتركته واقفًا عند البوابة وأحضرت له كأس حليب وانتظرت إلى أن شربه، فأخذت منه الكأس متمنية له نهارًا طيبًا وأغلقت البوابة ثانية.

المهم هو أنها هنا تستطيع أن تسبح مجددًا.

هناك، من حيث أتت، لم تكن مضطرة في أي وقت من الأوقات إلى التفكير فيما إذا كان الخبز ثمينًا إلى درجة تجيز للإنسان أن يتناوله بيده.
لقد سمعت أن الناس في أماكن أخرى يضعون العجائز مثلها على شجرة ويتركونهم ليموتوا جوعًا.
المهم هو أنها عندما يحل المساء تستطيع أن تسبح مجددًا في هذه البحيرة الباردة ذات البريق الأخضر.
أراد حفيدها الصغير أن يخرج لعبة جرار كان قد حفر حفرة وطمرها فيها.
على الطريق عبر البستان إلى الكنيسة علقت طرحة العروس بأغصان شجيرات عنب الذئب.
زهرة الهندباء البرية هي نفسها في الوطن، والقُبَّرات كذلك.
اللف والدوران.
عندما وضح أنها حامل أفرجت عنها أمها من التنور.
بعد إصابته صارت يده دائمًا باردة جدًّا.
مساءً عندما تفك رباط شعرها الأشيب قبيل أن تدخل سريرها يكون شعرها ما زال مبتلًّا.
الخشب الصلب يطول اشتعاله.
عندما يصير الإنسان عجوزًا كان فمه ببساطة يتداعى.
تفاح مقابل إجاص.
في لحظة ما يقرع الصنج داعيًا إلى المائدة. وعندها تعود الحفيدة من حمَّامها الشمسي على جسر القوارب صاعدة وهي تدندن لنفسها لحنًا ما بصوت منخفض، مثلما كانت تفعل طوال حياتها، منذ أن كانت طفلة صغيرة. وهذا يعني إذن أن الإنسان في أثناء الهروب يستطيع أن يحمل معه شيئًا، لا وزن له، كالموسيقى مثلًا.

البستاني

عرض أصحاب البيت على البستاني في الخريف أن ينتقل إلى غرفة الضيوف في الطابق الأرضي، التي لها مدخل منفرد، وفيها مغسلة خاصة، ويمكن تدفئتها في الشتاء البارد بسهولة عن طريق جهاز التدفئة الكهربائي، وقد قبِل البستاني العرض. قيل إن طبيبًا برلينيًّا سيستأجر المنحل وحديقة أشجار الفاكهة السابقة وفق مبدأ الضمان. لدى تفريغ المنحل وجد ابن أصحاب البيت بين برطمانات العسل صندوقًا مملوءًا بأدوات أكل فضية، فأخرجها ورتبها في أدراج أدوات الأكل في البيت الكبير. وحمل جهاز التدفئة الكهربائي، الذي ما زال موجودًا في غرفة تصفية العسل منذ الشتاء الماضي، وأعاده إلى القبو. وفي الموضع نفسه حيث كان يوجد سور ذات يوم سيبني الطبيب البرليني سورًا جديدًا، حالما تصبح حقوق ذلك الجزء من قطعة الأرض ملك يديه. وهذا ليس حقه فحسب، بل واجبه أيضًا، فكل ضامن مسؤول عن تسوير الجهة اليسرى من قطعة أرضه ووجهه متجه نحو البحيرة. والبستاني قادر على مساعدة القروي الذي سينفذ أعمال السور بأن يريه بعض أحجار الحدود القديمة المختفية تحت الأجمات والشجيرات، والتي ما زالت بادية للعيان في بعض المواضع.

يُروى في القرية أن البستاني منذ اقتلاع المنحل قد رفض تقليم أظافر أصابع قدميه، وأنها خلال هذه المدة قد استطالت ملتفة من تحت قدميه لتظهر عند كعبيه مجددًا، وهو يخفيها بالجوارب والحذاء، لكن مشيته العرجاء تدل بوضوح على وجود خلل ما. ويروى في القرية أن البستاني قد حرض الحفيدة الصغيرة على اقتلاع خصلات من الحشيش، ورميها بما علق عليها من طين على البناء الجديد حديث الطلاء للطبيب البرليني. بقع الطين الذي رمته الفتاة ما زالت واضحة حتى الآن. ويروى في القرية أيضًا أن العمال البرلينيين الذين أتوا من أجل نقل مشلح السباحة إلى مكان مرتفع على سفح الهضبة، قد ظهروا جميعهم مرتدين بدلات وأربطة عنق، وسترات قاتمة مقاومة للريح فوق البدلات كي يموهوا أنفسهم، هذا هو ما عرفوه من أخبار البستاني. ويروى في القرية أن المستأجر الجديد لقطعة أرض اليهود سابقًا، هذا الطبيب البرليني نفسه، هو المسؤول عن موت جاره الكاتب في المستشفى، على الرغم من أنه كان مصابًا بزكام فحسب، فقد زرق مريضه عامدًا جرعات فائضة، لأن الممر الضيق إلى البحيرة لم يكفِه، ولأنه أراد الحصول على اللسان الخشبي أيضًا، والبستاني خير شاهد على ذلك. وكان آخر ما رواه البستاني هو أن هذا الطبيب البرليني بعد الحفلة في حانة القرية المسماة «شجرة الشربين الحدباء» قد خرج مع فتاة من فرانكفورت على نهر الأودَر،

وعبر معها قطعة أرضه حتى شاطئ البحيرة، ثم تسلل معها من فوق السور، الذي لم تسمح له إدارة البلدية بتجاوزه، كي يستخدم اللسان الخشبي الذي لا حق له فيه، كي يخون امرأته عليه. وقد رأى البستاني ذلك بأم عينه.
بعد وفاة سيد البيت الكبير أجر ابنه الشاب المشغل لزوجين من عاصمة المحافظة، يرسو قاربهما الشراعي في مرفأ القرية، ليقيما في المشغل في خلال نهاية الأسبوع فقط. ولقاء ذلك عليهما حش المرجين الكبير والصغير في الصيف. ويجوز للحفيدة وصديقها ابن الجيران أن يحملا القمع في أثناء ملء البستاني خزان آلة الحش بالبنزين.

المستاجرون من الباطن

قال لها:
ـ أنت من عليكِ أن تحسمي هذا الأمر بنفسك.
فأجابت:
ـ نعم.
وبعد الـ«نعم» هذه انهارت داخليًّا باكية قبيل أن يدرك ما الذي جرى، فزوجته لم تبكِ حتى في قاعة الزيارات في السجن آنذاك، عندما جلست قبالته لأول مرة. آنذاك قال لها: ـ كنت سأطلبك لتلتحقي بي.
فأجابت:
ـ أعرف.
ولم تزد حرفًا، ولم تذرف حتى دمعة واحدة. بعد الإفراج عنه بقليل تزوجها من دون أي صخب. واليوم، بعد ثلاثين سنة، لم يقل في سياق الحوار بينهما سوى: «أنت من عليكِ أن تحسمي هذا الأمر بنفسك»، فردت عليه بما كان يشي بـ«نعم»، لكن هذه «النعم» لم تكن واضحة تمامًا، ثم أخذت ترتجف. ولأنه اعتقد أنها بردانة فقد أحاطها بذراعه. وكثيرة هي الأماسي التي أمضياها جالسين أحدهما إلى جانب الآخر على كرسي هوليوود الهزاز تحت إضاءة فوانيس الحديقة، حتى وقت متقدم من الليل، إما يتبادلان الحديث وإما صامتين، وهما ينظران في الوقت نفسه إلى سواد البحيرة الذي تقلِّبه الأمواج. عندما فاجأه صوت بكائها، سحب ذراعه من فوره، ونظر إلى زوجته، كما لم ينظر إليها في أثناء ثلاثين سنة من زواجهما، ثم وقف وذهب إلى اللسان الخشبي من دون أن يباعد أغصان الصفصافة المنسدلة كستارة على مقدمة اللسان. ها هو يقف الآن ناظرًا في الليل وهو يسمع من وراء ظهره، من الضفة، نحيب زوجته المستمر. وفكر بأنها تنتحب جالسة على كرسي الانتحاب الهزاز، وابتسم ابتسامة شامتة، فانشدَّت زاوية فمه إلى الحد الذي لم يعد قادرًا معه على إعادتها إلى طبيعتها. ها هو يقف الآن عند نهاية اللسان الخشبي الذي توجه إليه عمدًا عندما أخذت زوجته تنتحب، غير آبه بأوراق الصفصافة التي مسحت وجهه، ويبتسم بشماتة في عمق الليل. ما الذي بوسع المرء تكهنه! لقد أمضيا النهار مبحرين في الزورق الشراعي مع ريح خفيفة. كانت تمسك بالحبال بينما نشر الشراع، واستلمت قيادة الدفة بين الحين والآخر.
من الممتع أن تبحر بقارب شراعي. بسبب شغفهما بالماء أمضيا، هو وزوجته، سنوات طويلة يخيمان في ساحة المخيم قرب ميناء القرية، قبل أن تسنح لهما الفرصة للإقامة الدائمة هنا، حيث سمح لهما بتحويل المشغل القريب

من الشاطئ إلى مسكن لقضاء إجازات نهاية الأسبوع، مستفيدين من موجودات المشغل، كطاولة الشغل ومجموعة مفكات البراغي ورف صنانير الصيد والمغسلة الصغيرة. وبين المسامير والحبال والأزاميل ومفكات البراغي والجزمات المطاطية أوجدا لهما مكانًا مريحًا، يشتمل على جهاز تلفزيون وطاولة وسرير. كل ما كانا يحتاجان إليه كان موجودًا. وكان قاربهما الشراعي يتهادى على مرمى نظريهما بين عوامتين قرب اللسان الخشبي. من الممتع أن تبحر بقارب شراعي. بعد سقوط جدار برلين، وبعد أن عملت سيدة البيت في الخارج ولم تعد تولي اهتمامًا بقطعة الأرض، بدأت زوجته بتزيين المساحة بين مستودع الخشب والشاطئ بالحجارة، ثم زرعت المساحة حتى السور بالهليون، وعلقت إلى يمين ويسار كرسي هوليوود الهزاز سلالًا مزروعة بالورد تحت أغصان الأشجار، مثلما كانت الحال في المخيم. منذ الربيع، مع إنزال القارب إلى الماء كانا يبحران مهما كانت حالة الطقس. وكان بوسعهما على سبيل التغيير أن يستخدما قارب التجديف المعلق على جدار المستودع، فقد سمحت لهما سيدة البيت بذلك، لكنهما لم يجدا ما هو أجمل من أن تسوقهما الريح. من الممتع أن تبحر بقارب شراعي.
عندما يبحر بقاربه الشراعي يبدو له كل شيء هادئًا، حتى عندما تندفع الريح في الشراع وتشد الحبال، حتى عندها. وخطر بباله أن الإنسان لا يسمع خفق قلبه إلا إذا وضع كفه على أذنه، ووضع كفه على أذنه حقًّا. في أثناء الإبحار شراعيًّا لا يتبادل من الكلام مع زوجته إلا الضروري، فالإبحار أشبه بأداء عمل، لكنه لا يستطيع أن يحدد الآن أي نوع من العمل، ولا يعرف من الذي طالب بالصمت الذي التزم به هو وزوجته من دون أن يطرقا الموضوع قَطُّ. عندما يبحر يبدو له الماء لانهائيًّا، حتى عندما يكون الشاطئ باديًا للعيان دائمًا، وحتى عندما يبحر دائريًّا، أو من طرف البحيرة إلى طرفها الآخر وبالعكس، وثانية وثالثة. وفكر بأن اللانهائية قد تتأتى من الحركة، ولكن حتى هذا الموضوع لم يطرقه مع زوجته قَطُّ. سألته زوجته: ـ هل أخابر أختي أم لا؟
وأجابها:
ـ أنت من عليكِ أن تحسمي هذا الأمر بنفسك.
ما الذي بوسع المرء تكهنه! ها هو الماء الآن أسود ويخر تحت قدميه، وراءه تنتحب زوجته. قد يكون النحيب لا أكثر من خرير باطني للماء يسيل الآن في أثناء بكائها من عينيها وأنفها، هكذا فكر وهو يبتسم مجددًا بشماتة. وحتى حينذاك عندما حاول السباحة إلى ضفة النهر الأخرى كان الماء أيضًا بالغ السواد ويصدر خريرًا ناعمًا. لم يتمكن في الليل من قطع مسافة طويلة كاليوم. ها هو يقف مبتسمًا بشماتة على آخر اللسان الخشبي وهو يشعر بنفسه ممسوكًا ثانية، مقيدًا من الخلف من دون حبال، آنذاك بنداءات وتهديدات ولعنات من الشاطئ وراءه، واليوم بأصوات، آنذاك من دون قارب تحت مؤخرته بل سباحة، واليوم واقفًا على آخر اللسان الخشبي، وزوجته

التي لم تبكِ آنذاك عندما جلست قبالته لأول مرة في قاعة الزيارة في السجن، تبكي اليوم.
عرف آنذاك أنه لا بد من الرجوع. صديقه لم يعُد. في هذا النهر الذي مُنعت فيه السباحة كانت المياه تجري كما في الأنهار الأخرى. وقد سبح هو وصديقه في أنهار أخرى لمتعتها، غطسا حتى القاع أو تركا المياه تتقاذفهما هنا وهناك. وقد تعجب في تلك الليلة وهو يسبح من كون السباحة الممنوعة منعًا باتًّا في هذه المياه تشبه السباحة في أي مكان آخر. وهو يعرف اليوم أيضًا أنه لا بد من الرجوع في لحظة ما، الرجوع إلى زوجته الباكية في كرسي هوليوود الهزاز تحت ضوء المصباح. لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره عندما تعلم قيادة الدراجة النارية، وتدرب عليها مع أصدقائه على أوتوستراد قيد الإنشاء، على مقربة من هنا، أعلى الغابة، على تلك الطرق الأسمنتية القادمة من لا مكان والمؤدية إلى لا مكان، والتي يجدها الخبير بهذا البلد في كل مكان، إذ فجأة يتحول طريق تنزه ترابي إلى أوتوستراد، وسرعان ما يعود مجددًا إلى كونه طريق تنزه منتهيًا أمام غابة أو أمام جدار. ذات مرة عندما استعار الدراجة النارية من صديق أكبر منه سنًّا، كي يتدرب عليها لأول مرة على أوتوستراد الغابة، كان يعرف كيف يشغل البنزين، لكنه نسي أن يسأل عن الكوابح. وعندما انتهى الأوتوستراد عند الغابة، كما لو أنه أمام جدار، اخترق الغابة بسرعة هائلة، بالمرايا العريضة التي ركبها صديقه على مقود الدراجة، بين أشجار البلوط والصنوبر متجنبًا الاصطدام بها، من دون أن يعرف كيفية إيقاف آلة كهذه. قال: «خراء» وهو يحاول بمؤخرته وليس بعينيه إيجاد مخرج من الغابة. لم تخطر بباله آنذاك فكرة أن يرفع يده عن البنزين. قد يحدث أحيانًا أن يكون لمزحة ما نواة قاسية، فيعضها المرء من حيث لا يدري بأسنانه التي كشفها وهو يضحك، فإذا به غير قادر على الإفلات منها ثانية. «خراء». ما زالت زوجته تبكي. «خراء»، فكر وهو واقف بظهره إليها. إنه لا يدري كيف يمكن لكلمة واحدة أن تصبح فكرة، لكن هذه الكلمة على كل حال هي كل ما يفكر فيه، وهو يفكر بمؤخرته أكثر مما يفكر برأسه. وعندما يفكر، فبفكرة تنبت فجأة، كالغابة التي انقذف فيها آنذاك، وتنتهي فجأة بالطريقة نفسها. ولكن يتبادر إلى ذهن الإنسان أن المسافة لانهائية بين البلوط والصنوبر وهو يلتف بين الجذوع، وظل الغابة في خلال هذه المسافة لا يبرِّد بقدر ما يحرق من الداخل. «خراء». عندما انتهى من حركات الالتفاف اللانهائية، أحس تحت العجلات بأن الأوتوستراد قد انتهى فجأة، وشكر هتلر لأول مرة في حياته، لأن جميع مرايا الدراجة النارية بقيت سليمة.
الالتفاف فن، فإما أن يتقنه وإما أن هذا الفن يسيطر عليه. ماذا بوسع المرء أن يعرف! فسواء سبح المرء بشكل مستقيم أم التف تبقى السباحة دائمًا هي نفسها. صديقه الذي سكر معه في تلك الليلة ثم قفزا في النهر معًا وكأن الأمر مزحة، لم يرجع. فإما أنه لم يسمع النداءات من ورائه وهو منهمك في

السباحة، أو حسبها جزءًا من المزحة، أو أنه، وهذا محتمل، لم يرد أن يرجع. السباحة هي نفسها دائمًا. وصديقه لم يصل قَطُّ، لا إلى الضفة الأخرى ولا إلى التي انطلق منها. عند الإبحار شراعيًّا تدرب هو وزوجته على قلب القارب في الماء، يقلب القارب بمن فيه، ويديره في الماء دورة كاملة ليعود إلى وضعه الطبيعي. وعلى المرء أن يتمسك بالصاري بشدة كي يبقى على متن القارب عندما يستقيم. ممتع أن يبحر المرء بقارب شراعي. ماذا بوسع الإنسان أن يفعل!

لم تعرف زوجته أن لها أختًا إلا منذ أسبوع، عندما رن الهاتف. كانت زميلة مدرسة لم ترَها أو تكلمها الزوجة منذ نحو ثلاثين أو أربعين عامًا. «يا لها من مفاجأة أنك ما زلت، كيف وجدتني، من أين حصلت على الرقم؟ ستكون حفلة لمِّ شمل للتلاميذ، صحيح، أمر جميل، وفلان وفلان أيضًا، وفلانة أيضًا، ماذا كان اسم ذاك الذي ترك مبكرًا؟ لا تقوليها! مات حقًّا! يا للأسف! كم طفلًا صار عندك؟ والعمل، والزوج، والإبحار الشراعي، قطعة أرض لإجازات نهاية الأسبوع، أتعرفين العنوان حقًّا؟ طبعًا، ما بك؟ وما هي أخبار أختك؟».

ـ أي أخت؟

ـ أما زال زوج أمك على قيد الحياة؟

ـ أي زوج أم؟

قالت تلك الصديقة أخيرًا، على الهاتف: ـ آها، أنت ما زلتِ لا تعرفين حتى الآن! أبوك لم يكن قَطُّ...

ـ ماذا؟

تقول الزوجة وهي تضغط السماعة على أذنها: ـ ماذا؟

وتنظر في أثناء ذلك إلى القارب الشراعي الذي يتهادى في الماء بين عوامتين. تقول الصديقة في السماعة: ـ أنا حقًّا آسفة الآن.

لكن الزوج لا يستطيع سماعها، فهو لم يسمع سوى زوجته تسأل بعد برهة إنصات، «أي أخت؟»، وبعد مرور لحظات أخرى، «أي زوج أم؟». وفي الختام سألت ببساطة: «ماذا؟»، ووضعت السماعة. كان قد نقل خط الهاتف من البيت الكبير إلى الورشة تحت، منذ أيام ألمانيا الشرقية، إذ كان والد صاحبة البيت قد أذن له بسحب خط فرعي من الرئيسي. في مسكنهما في عاصمة المحافظة انتظرا ثلاث عشرة سنة حتى صار عندهما خط هاتف. وعندما يوجد هاتف في مكان ما فلا بد له من أن يرن.

«عشت طفولتي كما في الحكايات»، هكذا كانت الزوجة تحكي للناس دائمًا وهي تبتسم. ثم تأخذ بالحديث عن أبيها الذي علمها صيد السمك بالصنارة وزراعة الهليون واستخدام مشط المروج، والذي كان يدعوها دائمًا ابنتي المدللة. وعندما كانت تحكي عن طفولتها كان الجميع يتمنون دائمًا لو كانت طفولتهم كما في الحكايات. لكنها لم تذكر زوجة أبيها قَطُّ. عندما يكون أبوها في البيت لا تجرؤ زوجته على ضربها. لم تعد تتذكر أمها، وأبوها لم يعد يتحدث

عنها. أما الآن، ومع تأخير حياة كاملة، فتدري عن طريق الهاتف، أن حتى أباها لم يكن أصيلًا، وأن لها أختًا في القرية المجاورة لا تتذكرها على الإطلاق، وأنها هي والأخرى قد جلبهما وهما طفلتان صغيرتان لاجئو حرب من «الجبال العملاقة» (١٦) وأنزلوهما لدى عائلتين مختلفتين في قريتين متباعدتين في هذه المنطقة، هكذا أخبرتها صديقتها على الهاتف. لا شك في أن الجميع في القرية يعرفون ذلك ما عداها. «هذا يؤسفني حقًّا»، هكذا قالت الصديقة.

هل على المرء الآن بعد تأخير حياة كاملة أن يحاول البحث عن أخته؟ وإذا ما توصل فعليًّا إلى عنوان مسكنها، فهل عليه أن يرفع السماعة ويدعوها أو يزورها؟ أنكتب لها رسالة، أم نترك كل شيء كما كان عليه، على الرغم من أن كل شيء سيكون منذ الآن مختلفًا عما كان عليه؟ أي امرأة كبيرة في السن تمر من أمامها في قارب شراعي يُحتمل أن تكون أختها. أو تلك المجنونة في المنتجع المجاور التي تجر أمامها عربة تبضُّع فارغة دائمًا وهي تتمتم باللعنات. أو امرأة تجلس في المقهى وأمامها قطعة جاتو، أو أي امرأة حيوية في منتصف الستينيات تبحث عن طريق إعلان صحفي عن شريك لا يدخن، أو أي امرأة نحيلة في برلين. ويحتمل أن تكون أختها قد ماتت منذ مدة وذوت في قبرها. هل صار العالم كله الآن يمت إليها بصلة القرابة، أم بالعكس، أن كل ما كان قريبًا منها بات فجأة غريبًا أو ميتًا؟ في طفولتها كانت دائمًا تسأل أباها، لتخرج من حيرتها مع نفسها. وحتى لاحقًا، بعد وفاة أبيها، كانت تتخيل، عندما تحتار فيما عليها فعله، بماذا قد ينصحها في هذه الحالة أو تلك. ولكن إذا كان أبوها ليس والدها إطلاقًا، فمن سيقدم لها النصح؟ عندما سألت زوجها قبل قليل عما إذا كان عليها أن تخابر أختها، لم يجب إلا بقوله: «أنت من عليكِ أن تحسمي هذا الأمر بنفسك». ها هي الآن وحيدة بعد تأخير حياة كاملة. إلى أين عليها أن تذهب كي تكتشف المكان الذي ولدت فيه حقًّا؟ هل إلى الجبال العملاقة؟

كانا قد بدآ التفكير بوضعهما قبل أسبوع واحد من قفزه إلى النهر الأسود، مع صديقه الذي لم يرجع، فيما خرج هو منه بعد قليل وهو يرتجف من البرد والماء يقطر من ثيابه. كانت أمام الصديقين امتحانات جامعية، وكان جليًّا أنهما لن ينجحا فيها، فقد أهدرا وقت التحضير للامتحانات في أمور أخرى، لأسباب مختلفة، إذ أولى صديقه اهتمامه إلى تنظيم كرنفال الطلبة، فزار عدة أمكنة مختبرًا مدى صلاحيتها للاحتفال، وكتب كثيرًا من الرسائل، إلى أن وافق «متحف الحياة الطبيعية» أخيرًا على وضع عدة قاعات تحت تصرف كرنفال الطلبة. بعد انتهاء ساعات الدوام هاجم الطلبة البناء الأشبه بقصر، متنكرين كشياطين وخنازير وتلميذات ورومان وجنيات، رتبوا مأكولاتهم الباردة فوق واجهات العرض الزجاجية وأمضوا الليل بطوله يرقصون بين هياكل الديناصورات والغوريلّات المحشوة. سرق بعضهم كحولًا من أواني المحنطات

وحاولوا شربه ممددًا بالماء، في حين صعد آخرون إلى اللوحات المشهدية ومثلوا هناك بين الثعالب والأيائل صورًا حية للنوم والحب. وفي خضم تنظيم هذا العيد اللامعقول، الذي نتجت عنه زيجات وأطفال، ضاعت من رأس صديقه جميع الأفكار المرتبطة بعلوم فيزياء البناء وتوازن مكوناتها. أما هو فقد عثر في أثناء إحدى جولاته الاستكشافية عبر خرائب برلين على مقبرة تحت الأرض تعود إلى القرن الماضي، وقد دفن في أقبيتها موتى من مرحلة «بيدرماير» (١٧) بكامل أزيائهم وأغطية رؤوسهم، محافظين على أنفسهم في توابيتهم، متجاوزين الحرب وجميع الموتى الجدد. صحيح أن التجاعيد قد كستهم، ولكن ما زال بالإمكان التعرف عليهم من أظافر أقدامهم إلى قبعاتهم الأسطوانية. وسأل زوجته الحالية التي كانت خطيبته آنذاك عما إذا كانت ترغب في أحد هؤلاء الموتى كخادم صامت في ردهة بيتها. لكن خطيبته اعتبرت القصة كلها مختلقة واقتراحه بشأن الخادم الصامت بمثابة مزحة، ومزحة رديئة، إلى درجة أنها لم تضحكها. لقد أمضى ساعات طويلة في تلك المقبرة راسمًا الموتى، ولكن طبعًا من دون أن تخطر بباله على الإطلاق الأسس الفيزيائية لصمود خرابة مثلًا.

ذات مساء، ولم يتبقَّ للامتحانات سوى أسبوع واحد، قال له صديقه: «يجب أن نهرب إلى الغربية، ونعيد السنة الدراسية هناك». فإذا أراد طلاب الشرقية متابعة دراستهم في الغربية كانوا يخسرون سنة، وهي تمامًا السنة التي أضاعاها بسبب تنظيم الكرنفال ورسم الموتى. «سنبدأ من جديد»، قال له صديقه، «هنا لا فرصة أمامنا، فهنا تسيطر الملفات الحزبية، ومعها يضيع مستقبلنا». ثم فكرا بأسهل مكان لتنفيذ الهروب. إنهما لا يعرفان شيئًا عن الحدود البرية ولا يملكان منطادًا، ولذلك قررا عبور نهر الإلبه. «ما زال البرد شديدًا»، قال صديقه، «بحيث لن يخطر ببال حرس الحدود أن أحدهم قد يفكر جديًّا في عبور النهر سباحة. سنسكر أولًا، كي لا نشعر بالبرد، ثم نجتاز النهر». هذا ما قاله صديقه السكسوني. ولم يذكرا فتاتَيهما بكلمة واحدة. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو له الآن لامعقولًا، لكنه نسي خطيبته آنذاك بكل بساطة. بعد أسبوع ركبا القطار مع دراجتَيهما ومعهما مفتاح إنجليزي وثلاث زجاجات نبيذ، سافرا مدة ساعة ونصف الساعة ثم انطلقا من محطة قطارات صغيرة على دراجتَيهما باتجاه مروج نهر الإلبه. شربا النبيذ هناك في العتمة ثم نزلا إلى النهر، حسب الخطة، عشية امتحانات فيزياء البناء وتوازن مكوناتها، كي يسبحا زمنيًّا سنة إلى الوراء.

لم يرَ خطيبته، زوجته الحالية، ثانية إلا في قاعة المحكمة، حيث استدعيت بوصفها شاهدة، وسُئلت عما إذا كانت على علم بنوايا هروبه. وانطلاقًا من الحقيقة الواقعة أجابت: «لا». مقارنة بهذه اللحظة بدت له جميع أسئلة فيزياء البناء سهلة، وتوضح له بجلاء أنه قد سبح في امتحانه بدلًا من أن ينأى بنفسه

عنها. لكن السباحة هي نفسها دائمًا. بعد ذلك رجا خطيبته أن تحضر له إلى السجن كتابًا عن فيزياء البناء. درس الكتاب حتى صار قادرًا أخيرًا على تدريس المادة لزملائه السجناء في دورات. كانت نسبة السجناء في ميدان البناء آنذاك أكبر من المعتاد، فلدى بناء جدار برلين حاول كثير من العمال الوصول إلى الجانب الآخر من النصب الذي يشاركون في تشييده. بعد انقضاء مدة السجن ذهب إلى أستاذه الجامعي السابق، ورجاه السماح له بالتقدم إلى الامتحان من خارج الجامعة. نجح فيه بكل سهولة، لكنه لم يعاود تسجيله في الجامعة.
يبدو الآن أن زوجته قد هدأت، يصل إليه رنين الكؤوس بين يديها، فلا شك أنها قد نهضت وبدأت تلم ما على الطاولة. عندما استدار رآها عبر ستارة أغصان الصفصافة حاملة صينية وهي تدخل المشغل. وقع نظره على طاسات الورد البلاستيكية البيضاء التي علقاها على الأشجار، وقد أضاءها المصباح الكهربائي فبدت في نأيها عن الطبيعة أبعد عن الليل من نور الصباح نفسه. والمشغل الذي أوسعا لنفسيهما فيه مكانًا بين الأدوات تغلفه العتمة. منذ أن طالب ورثة مالك قطعة الأرض السابق بحقهم في ملكهم، باتت صلاحية العقد بينهما وبين سيدة البيت مؤقتة، وقضاؤها الصيف هنا، كما عقد الإيجار من الباطن، لم يعودا حسب تعبيرها إلا «حلًّا مؤقتًا». فإن حُلت علاقات الملكية لمصلحة الورثة، فعليه وزوجته، حسب الاتفاق، أن يخليا المشغل. ولكن لا أحد يعرف متى سيُبت في الأمر. قالت زوجته بعد الحديث مع سيدة البيت إن لتعبير «مستأجر من الباطن» وقعًا مثل «أعشاب ضارة». ومنذئذ ارتبط تعبير «أعشاب ضارة» في ذهنه بطريقة ما بالسعادة التي يشعر بها هنا عندما يبحر بقاربه الشراعي. وهي سعادة تنبع من الفوضى، مثلما تنبع اللانهائية من البحيرة التي تحدها الضفاف التي يدير ظهره لها الآن. هو وزوجته يقضيان عطلات نهاية الأسبوع في مشغل، يربطان قاربهما الشراعي إلى لسان خشبي لا يملكانه، وعلى الرغم من ذلك، بوسعه القول إنه سعيد تمامًا بالاستعارة المشروطة للطافية الجليدية هذه.
لو أنه نجح في الهروب حينذاك، كان محتملًا أن ينجح في دراسته الجامعية في الغربية. غير أن رسوماته للموتى على كل حال قد اشتراها متحف تاريخ المدينة فورًا، بعد فتح المقبرة ونقل الموتى وإعادة بناء الكنيسة. بعد قضاء مدة سجنه، أُرسل كما هو متوقع في الشرقية للعمل في معمل للأثاث، لتطهيره من الرواسب الغربية. وكان يفترض أن يكون ذلك جسرًا، حلًّا مؤقتًا، ليتمكن بعد ستة أشهر من متابعة دراسته الجامعية هنا في الشرقية، لكنه حسم أمره وبقي في معمل الأثاث عاملًا عاديًّا. وامتد الحل المؤقت على مدى حياته كلها، حتى الآن على مشارف التقاعد. وعندما كان يدور الحديث مجددًا حول هذا الموضوع، كان يقول دائمًا إن الشغل العملي قد ناسبه أكثر من الدراسة الجامعية. ماذا بوسع الإنسان أن يفعل! وبينما كان يحس

بعوارض اللسان الخشبي تتقلقل تحت خطواته، فكر، كم سيكون الأمر جميلًا لو تمكن من الموت مع زوجته قبل البت القطعي في مسألة الملكية. فعندها سيكون بوسع الخطيب على قبريهما أن يقول: «لقد تمكنا حتى النهاية من ممارسة ما يحبانه، الإبحار شراعيًّا».

البستاني

يحكى في القرية أن ابنة البيت قد شوهدت مؤخرًا بصحبة بعض الفتيان على رصيف الباخرة وهم يدخنون ويشربون. وأنها تحبذ عندما يكون القمر بدرًا، ومن دون علم أبوَيها أو جدتها بذلك، أن تتسلق سور البلكون الصغير أمام نافذتها، نازلة على إطار نافذة الصالون وعلى سلم لصوص يمسكه لها البستاني بيديه، لتعود بعد فترة وتصعد إلى غرفتها بالطريقة نفسها.
يسر المستأجرين من الباطن أن يبقى البستاني جالسًا على العتبة بكل هدوء، وفي فمه عقب السيجار المطفأ، عندما يبدآن بنشر شجرة التنوب الكبيرة، كي يتمكنا من تمديد خط الهاتف بشكل مستقيم ما أمكن، من البيت نزولًا إلى المشغل، بحيث يكفي طول الكبل الذي اشترياه من جيبهما للمسافة. وشجرة التنوب كانت على كل حال قد اصفرت في الآونة الأخيرة وباتت بشعة، إضافة إلى أن داخلها تآكل منذ مدة طويلة. وعند استئصال جذرها اليابس الهائل عثرا على صندوق مملوء بالبورسلين. ولما عرضا الصندوق على سيد البيت علق قائلًا: «ليس سيئًا أبدًا كل هذا الذي ينبت في الحديقة. إنها أعجوبة الطبيعة». هز البستاني رأسه، بينما حمل سيد البيت الصندوق إلى سيارته.

صديق الطفولة

يصعد أحيانًا سلمًا، ويرتب الغطاء البلاستيكي الذي غطى به سطح مشلح السباحة في الخريف الماضي. وقد يؤدي في أثناء الليل عملًا مشابهًا بأن يرتب الغطاء على صديقته التي، بحسب اتفاقهما القديم، تستلقي إلى جانبه في السرير وكأنها زوجته. بدأ السطح يتعفن من جهة البحيرة، فلا فائدة كبيرة مما يفعل، وقد يتعفن السطح تحت الغطاء البلاستيكي بصورة أسرع. لكنه لا يستطيع ببساطة أن يترك الأمر للريح، فبالغطاء البلاستيكي قد يتماسك السطح لمدة أطول، على الأقل، ويحافظ على منظره كسطح.
لو لم يرسله والده من ورشة البناء آنذاك ليحضر البيرة من البيت بسرعة، لما التقى بها في تلك اللحظة التي كانت تقطف فيها توت السياج مع أبيها عند المنحدر المقابل لبيتها. أشار إليه والدها بأن يقترب وسأله عما إذا كان يرغب أيضًا بتوت السياج، فأجاب بنعم. ومنذئذ، عندما قطف التوت معها لأول مرة اتخذت الحياة مسارها الخاص، وحتى هذا اليوم وهو يرتب الغطاء البلاستيكي على سطح مشلح السباحة. غالبًا ما يتساءل بينه وبين نفسه، «ترى لو أن أبوينا لم يتأخرا حينذاك ليجعلا منها ومني رفيقَي لعب، فهل كانت حياتي ستبقى حياتي؟». بيد أن أي «لو» أو «إذا ما» كانت غالبًا ما ستملأ الحياة وحياته هو أيضًا. آنذاك عندما كان في الخامسة من عمره وهي في الرابعة، كان القرار قد حسم من قبل أبويهما، أو من طرف ما، وبصورة نهائية، بشأن حركات يديه التي يُسوِّي بها الآن، واقفًا على سلم وهو في منتصف خمسينياته، غطاءً بلاستيكيًّا طيرته الريح.
أتجرؤ على الزحف على هذا الغصن إلى الأمام أكثر؟ هيا لنتأرجح، أتعرفين أنه يمكن تدخين شباشيل القصب؟ هيا نبني بيتًا في الماء من البلاط، وجدت غلاف رصاصة، وأنا أيضًا، هيا لنتأرجح، إذا وضعت لوحًا خشبيًّا على العجلة تحصلين على طوف، أنبوب قذف السهام لا يصنع إلا من أعواد البيلسان، لأنها مفرغة من الداخل برأي البستاني، فلنذهب إلى حديقة ليدكه البرية فهناك ينمو تفاح لا صاحب له، هيا لنتأرجح، تعالي، سأصنع سلم لصوص، كم يمكنك البقاء تحت الماء؟ لقاربي دفة توجيه من الصفيح، غرفة النوم تمتد إذن من الوسادة هنا وحتى السقف، هيا لنتأرجح، أتستطيعين القيادة من دون أن تمسكي بالمقود؟ أتعرف أن دانييل الصغير قد وقف على حافة النافذة وبال إلى الخارج؟ خراء، سقط المجداف مني في الماء، أعطيني قبلة.
هناك بين جذور شجرة البلوط الكبيرة التي يراها بصورة جيدة من موقعه على السلم، طمرا آنذاك العلبة الصغيرة التي احتوت على القروش القصديرية باعتبارها كنزًا من عرس أخته، فعثرا في أثناء الحفر على الأباريق

القصديرية التي خبأها أحدهم ذات يوم في المكان نفسه. إنه لا ينظر الآن من موقعه على السلم نحو جذور شجرة البلوط الكبيرة، لكنه يرجح أن العلبة الصغيرة ما زالت هناك تحت التراب، ولكن إن كانت العلبة قد تعفنت فالقروش على الأقل لا تزال في محلها. أتعرف أن دانييل الصغير قد مات؟ أتعرف أنه كان ميتًا عندما أراد أبوه إطلاق النار على أمه؟ أتذكر كيف كان يغطس معنا تحت الماء بين سمك الكراكي وجذوع القصب، وكم كانت أفواه السمك باردة عندما كانت تصطدم بأرجلنا؟ بعد فترة وجيزة من فتح الحدود غطس في البحر الكاريبي وغرق. نعم. وكأن فتح الحدود قد فتح أمامه إمكانية الموت بصورة أوسع. بالنسبة إليه كانت الرحلة «لو» و«إذا ما»، والآن سيبقى إلى الأبد دانييل الصغير. بعد الليلة التي أطلق فيها والد دانييل النار على زوجته، وكان هو على شفير الموت بسبب السرطان، باتت هي أيضًا على شفير الموت. نعم. وكأن الموت يحصد على راحته في مثل هذه العائلة. هل قرأت الجرائد حيث بقيت صورة بيتهم الصيفي على الصفحة الأولى طوال ثلاثة أيام، ونافذته هي تلك التي بال منها دانييل إلى الخارج؟ النافذة الآن سوداء وخاوية، كما البيت الصيفي كله، منذ حادث إطلاق النار. قيل إن سبب الخلاف كان هذا البيت الصيفي. أطلق والد دانييل الرصاص من سريره على والدة دانييل في سريرها. وسبب الخلاف هو حصة أخي دانييل غير الشقيق من الإرث، وهو مقيم في الغربية. نعم. يبدو أن فتح الحدود بالنسبة إلى والدَي دانييل أيضًا قد فتح المجال واسعًا أمام احتمالات موتهما.

لكي يغلف السطح بالغطاء البلاستيكي اضطر في الخريف الماضي إلى وضع قدمه مجددًا في قطعة أرض صديقته، منذ أن ساعدها قبل سنوات في لمِّ أغراض البيت وتفريغه. تسلق فوق السور الواطئ المبني من حجارة الحقل وشق طريقه عبر الشجيرات إلى أرضها، لأن البوابة التي كان يعبرها في طفولته كانت موصدة. وكم من ساعات أمضاها جالسًا معها بعد الظهر على دعامتي طرفي البوابة وهما يمدان لسانَيهما للعابرين. عندما يفكر الآن بنهاية الأسبوع التي أفرغت فيها البيت وغادرته، أو بزيارته لبرلين عندما كان في الثالثة عشرة، أو ببعد الظهر البعيد ذاك عندما شاهدا في مستودع الحطب ما كان من الأفضل ألا يشاهداه، يستغرب جدًّا أن النهار يتلو الليل دائمًا بصرف النظر عما يحصل، وهو لا يدري حتى اليوم ماهية ما يتتالى ويستمر. ربما كانت الحياة الخالدة موجودة في أثناء الحياة، ولكن بما أنها تبدو مختلفة عما يأمله المرء، أي بعيدًا عما يحدث وعما حدث قديمًا، فلا أحد يتعرف عليها. البيت ما زال قائمًا بالطبع، وهو لا يعرف ما هذا الذي ما زال قائمًا. وماذا عنه هو نفسه، وعنها هي أيضًا، في مكان ما في العالم؟

«عندنا في الحديقة يوجد توت شوكي وعنب الذئب وتفاح، لكن التوت الشوكي وعنب الذئب استهلكا هذه السنة»، قال هذا وحصل من أبيها على الإذن بأن يريها حديقته بعد الظهر. وعندما وقفت هي في حديقته وقضمت

تفاحة غير ناضجة بعد، قالت: «عندنا لا يوجد سوى الورد». وعندما يستعيد ذلك في ذاكرته يجد أن ما يسمى طفولته قد بدأ منذئذ، منذ وصولها لقضاء العطلة وحتى رحيلها. وفي اليوم الذي ظهرت فيه أخته على الدرب بثوب الزفاف للذهاب إلى الكنيسة من أجل التكليل، ونثر عليها وعاءً مملوءًا بالقروش لجلب الحظ، عندها أخذ مع صديقته بجمع قطع العملة خفيفة الوزن من الرمل، العملة القصديرية التي لا وزن لها تقريبًا، وبعد أن ابتعد موكب العرس، وأيديهما ما زالت تنبش الرمل، تحدثا لأول مرة عن الزواج.
تستطيعين بحجر ثقيل كسر حبات البندق، عندما يكون قلبها ما زال أبيض، هيا لنتأرجح، أستطيع أن ألتف بالدولاب الأمامي يسارًا حول البركة وبالخلفي يمينًا، فلنخترع لغة سرية، يقال عن التقبيل تغريد، نعم، هيا لنتأرجح، عند صيد السمك بالصنارة لا يجوز الحكي، اضغطي ورقة الليلك بين كفيك وهي مستقيمة تمامًا وانفخي فتصدر أفضل صفير، هكذا قال البستاني، هيا لنتأرجح، تعالي لندفن الخلد هنا تحت الشجرة، الأوراق الصغيرة التي تشبه القلوب في عشبة الصياد يمكن أكلها، لنختبئ تحت شجرة التنوب، أعطيني قبـ...، آه، بودي أن أغرد، وأنا أيضًا.
كان والداه يغادران البيت منذ السادسة صباحًا، وصديقته تتناول فطورها في الثامنة، ويُسمح له بالقدوم من الثامنة والنصف. في الصباحات الباكرة عندما كان يضغط قبضة البوابة ذات الدعامتين الخشبيتين يمينًا ويسارًا، كان يحس بالندى على يده، وفي أثناء عبوره إلى البيت كان ينقر على زجاج المطبخ ذي اللون الأخضر، كي تفتح له الطباخة الباب، فيدخل ويبقى واقفًا في غرفة الجلوس إلى جانب المائدة الطويلة التي تجلس إليها صديقته وعائلتها وأصدقاء العائلة، يقف مستندًا إلى المدفأة الباردة إلى أن تنهي طعامها، ثم يلعبان إما في حديقته أو حديقتها، يسبحان من لسانه أو لسانها الخشبي، يختبئان في الخزانة السرية في غرفة الأولاد في بيتها تحت المعاطف والأثواب، أو يشاهدان التلفزيون الأسود والأبيض في بيته، يشاهدان رعاة البقر يطاردون على خيولهم عبر المدى الأسود والأبيض، ويشاهدان أخيرًا كبواتهم السوداء والبيضاء حتى الموت.
قرأ ذات مرة أن الأجنة تمر في أرحام الأمهات بمراحل النشوء والارتقاء كافة، أي أنها تبدأ أسماكًا وبرمائيات، ثم ينمو لها وبر، ثم تكتسب لمدة من الزمن عمود الخنازير الفقري، وفي المرحلة الأخيرة تولد بشرًا. أخذ يفكر خلال هذه الفترة باحتمال أن تبدأ عقب الولادة حياة بدائية ثانية، وهذه المرة كموجز لتاريخ البشرية يسمى طفولة، بمعنى أن مرحلة الصيد والجمع يسري مفعولها مجددًا على الجميع باعتبارها الأساس الذي يتطور منه مختلف أنواع البالغين. ففي سياق عملية النشوء والارتقاء ظهرت جميع الكائنات، بعضها تطور إلى حيوانات برية وصلت في نهاية تطورها إلى القرود أو القطط البرية، وبعضها الآخر فضل الحياة المائية فصار من ثَمَّ دلافين أو حيتانًا. إذا

كان الأمر على هذه الصورة فقد تعرف على صديقته في العصر الحجري وشاركها حياته حتى أواخر العصر الوسيط، ما يعادل مليونين ونصف المليون من السنين.
وهو يرى من وجهة نظر اليوم أن مثل هذا العصر البدائي الذي تشاركاه معًا يشكل رابطة لا تنفصم عراها وأقوى من أي وعد. فالأعين التي رأيا بها في مستودع الحطب آنذاك ما كان يفضل ألا يرياه، ما زالت في محاجرها في رأسيهما حتى الآن، حتى وإن تباعد الرأسان، مكانيًّا فحسب، أحدهما عن الآخر. فرؤية آنذاك ما زالت مستمرة حتى الآن. في مستودع الحطب بين قطع الحطب المرتبة فوق بعضها وسقف المستودع هناك مساحة تعادل مترًا، حولاه إلى مخبأ لهما، رتباه بقطع الحطب كغرف فرشاها ببقايا سجاد، وسمَّرا هنا وهناك على الجدار بقايا قماشية، وعلقا مصباح جيب كمصدر للنور، فحصلا بذلك على مسكن كامل، ولكن زحفًا. كان بوسعه من على سلم بيته أن يرى سطح مستودع الحطب. لم يتبقَّ عليه بمرور الوقت سوى أغصان جافة وأوراق يابسة. «نيكول ابنة عمتي في زيارة عندنا الآن. وهي تحب أن تسبح عارية دائمًا، وتسمح لي بأن أقبلها عندما تكون عارية»، قال هذا رينيه ابن أخت مدير مصنع العجلات، وهو أكبر منهما بقليل ومغرم بالإجازات، وعندما يأتي لزيارة خاله ينضم إليهما في المستودع من فوره، حانيًا رأسه في مخبئهما مقترحًا عليهما عمل هذا أو ذاك. «نيكول ابنة عمتي في زيارة عندنا الآن. وهي تحب أن تسبح عارية دائمًا، صحيح أنها ما زالت في الثانية عشرة مثلكما، لكن من المؤكد أنها ستنام معي أيضًا». في كل خط كهربائي يوجد ثلاثة كابلات، الأزرق والأحمر والأصفر. الأزرق والأحمر ضروريان لكي يسري التيار، والأصفر موجود دائمًا على الرغم من أنه لا يوصَل بأي شيء إطلاقًا، ويسمونه الأرضي. «نيكول ابنة عمتي في زيارة عندنا الآن. وهي تحب أن تسبح عارية دائمًا، وتسمح لي بأن أقبلها عندما تكون عارية، صحيح أنها ما زالت في الثانية عشرة مثلكما، لكن من المؤكد أنها ستنام معي أيضًا. إذا اختبأتما وراء الخشب يمكنكما مشاهدتنا، أتريدان؟».
كانا في ذلك الحين قد عرفا كيف يسيل الدم من جرح، إذ سبق لهما بسكين الجيب أن جرحا معصميهما وأقسما على أخوة الدم، كما كانا يعرفان أن الخراء عند التغوط ينزل بطيئًا في البداية من فتحة الشرج ثم يتسارع. تحت الصفصافة قرب البحيرة قرفص هو أولًا ثم هي وأخذا يراقبان أحدهما الآخر. وبما أن الرؤية تبقى في حيز الرؤية دائمًا، أي من دون لمس ولا شم ولا تذوق ولا حتى سمع، إذ عندما يضع الإنسان يده على قماشة مكبر الصوت في الراديو يحس بالذبذبات، ولأن الرؤية في ذاتها لا يمكن قطعًا أن تُملأ بأصغر قطع من الواقع، بدت لهما آنذاك المستودعات وراء أعينهما لامتناهية، والمرجح أن هذا هو السبب الذي دفع بهما كليهما إلى الموافقة فورًا على اقتراح ابن الجيران.

كان بوسعهما طبعًا أن يرفسا قطع الحطب التي تحدد غرفة النوم في مخبئهما عندما سأل رينيه نيكول عما إذا كانت تعرف كيف يُعْمل الأولاد. وعندما أبدت جهلها وشرح لها رينيه ذلك كان بوسعهما أن يظهرا فجأة من المخبأ ويعلنا أن الموضوع كان مجرد مزحة. ولكن عندما سألها رينيه، الأكبر منها ببضع سنوات، عما إذا كانت ترغب في تجريب ما شرحه لها على نفسها وأجابت هي عن ذلك بـ: «لا»، واستمرت في قول: «لا» طوال الوقت، أمسك بها رينيه وباعد ساقيها بجسمه، وكان كلاهما عاريًا بعد السباحة. نيكول ذات الاثنتي عشرة سنة والأضعف من رينيه الذي سيبدأ تعلم مهنة بعد عطلة الصيف، أخذت تبكي، فأغلق فمها بيده وأخذ يرهز بين ساقيها. كان الصديقان ما زالا يشاهدان من خلال الثقوب بين الحطب التي سمحت بمشاهدة كل شيء. في البداية كان الوقت مبكرًا جدًّا للخروج من حالة الاختباء، ثم صار متأخرًا جدًّا، والخط الفاصل ما بين مبكرًا جدًّا ومتأخرًا جدًّا كان من الدقة بحيث لم يكن من الممكن إعلان لحظة حياد. خلف الجدار الخشبي الذي رفعه رينيه أمام المشاهدين كان الفراغ ضيقًا ومعتمًا، ولو قاما بأدنى حركة لانهار كل شيء.

لقد رأيا. رأيا طويلًا وبما يكفي لملء جميع المستودعات وراء أعينهما بما كان يُفضل ألا يرياه. إنه لا يذكر كيف غادرا المخبأ هو وصديقته لاحقًا، وكيف نزلا من فوق أكوام الخشب وخرجا إلى العراء. ولو تعلق الأمر بما يتذكره المرء لكان محتملًا أنه وصديقته لم يغادرا المخبأ قَطُّ، وأنهما ما زالا يزحفان في مخبأ الحطب حتى الآن، وهو المستودع المغطى اليوم ببقايا أغصان وأوراق يابسة. أما أن تتجذر علاقة الإنسان بالمكان عن طريق شهوانية وحياء مشتركين بأكثر من سعادة مشتركة، فهذا ما كان بوده لو أنه لم يعرفه قَطُّ.

ثمة أمر لم يفهمه آنذاك، وهو أن صديقته هناك حيث يعيش لا تمضي إلا عطلتها المدرسية. وهو ما زال يعيش هناك، على الرغم من أن يديه قد بدأتا تبدوان مثل يدَي رجل هرم. بعد عيد «تكريس الشبيبة» (١٨) بقليل، وفي عطلة نهاية الأسبوع الخاصة تلك، عندما كان الاتجاه معكوسًا، من حيث إنه هو القادم لقضاء الإجازة وهي المقيمة في وطنها برلين، فهم أخيرًا ولكن متأخرًا. «يا شمس قلبي»، كتب لها زميلها في المدرسة، وكرر النداء عدة مرات، إضافة إلى أشياء أخرى كثيرة على وريقات صغيرة كانت تحفظها في دفترها ذي السلك. ضحكت منه عندما عثر على الوريقات مصادفة، وسألها من سواه يحق له أن يناديها «يا شمس قلبي»؟ فأجابت بأن الأمر مجرد مزحة، مجرد مزحة حقًّا. ولكن عندما لم يقتنع ولم يرغب في الضحك من المزحة، برمت وجهها وباحت لأول مرة بما كان بالنسبة إليها بديهيًّا آنذاك، وما لم يفهمه حتى اليوم، أي أنها في برلين حيث تعيش تستطيع أن تفعل ما تشاء.

ومنذئذ صعب عليه في أثناء العطلات الصيفية اللاحقة أن ينتظرها إلى جانب المائدة الطويلة فيما تتناول الفطور مع عائلتها. رأى نفسه فجأة واقفًا هناك كمن يخدم على المائدة، كمن يقدم نفسه على صينية من رأسه حتى قدميه، وقد حشي فمه بالبقدونس ووضعت تفاحة مشوية بين قدميه كملحق بالوجبة الرئيسية. «أتريدون أن تأكلوني؟»، ومنذ ذلك الحين حسم الحيوان البرمائي أمره باتجاه الحياة البرية، مثلما حسمت هي أمرها باتجاه الحياة المائية، أو بالعكس. بيد أن اختصاصيهما في نهايات العصر الوسيط قد أديا إلى أن تقف أمام باب بيته، من دون أي تفسير سابق، مع صديق ما، لتعرِّفه على صديق طفولتها، حسب تسميتها. وهو، صديق الطفولة، وقف عند عتبة باب بيته وقد أدخل في منخاره قطعة من منديل ورقي لإيقاف الرعاف المفاجئ بإسعاف ذاتي قبيل قرعها الباب. وكانت علامة قرعها الباب هي العلامة السرية نفسها منذ الطفولة. فتح الباب ورأى صديقته هناك مع مرافقها. قال:

ـ نهارًا طيبًا، أتودان الدخول؟

نظر المرافق البرليني لصديقة الطفولة إلى المنديل الذي يرشح منه الدم وقال:

ـ لا أريد الإزعاج.

بعد ذلك صارت نادرًا ما تقرع بابه عندما تكون بصحبة هذا أو ذاك الصديق الذي جلبته معها إلى الريف، وهي تمر بباب بيته. ولكن إن رأت ساقيه ممتدتين من تحت سيارة ما في الورشة التي بناها جانب بيته، فكانت دائمًا تلقي التحية. وذات يوم عندما تزوجت واحدًا من هؤلاء الأصدقاء، بات أمرًا بديهيًّا بمرور السنوات أن يساعد زوجها في الشتاء بسحب القارب إلى البر وقلبه رأسًا على عقب، وبأن يعلق قارب البدالات على الجدار الخلفي في مستودع الخشب، وأن يعيد بناء اللسان الخشبي في الربيع مع المستأجرين من الباطن، أو أن يقلِّم أحيانًا، عندما لا يسمح لها ولزوجها الوقت، الشجيرات ويجمع أوراق الشجر، ويؤدي جميع أعمال البستنة التي ما عادت سن البستاني تسمح له بها. وكان الأجر الساعي الذي تدفعه له يتجاوز التعرفة المحلية المعتادة بكثير.

أتأخذ عني صندوق الكتب هذا؟ طبعًا، لكن يدي اليسرى ما زالت حرة، خذ الأحذية إذن، مطحنة القهوة ستبقى هنا، طبعًا، لقد صدأت على كل حال، وضعت على السرير الأثواب والمعاطف من الخزانة، لا محل لها في أي حقيبة، إذن لا بد من تعليقها، حسنًا، هل جمعت مفارش الأسرَّة؟ نعم، اترك إذن مفتاح الأمان الرباعي معلقًا في ثقب الخزانة الجدارية، من يدري، قد يحتاج إليه أحدهم يومًا ما، بالنسبة إليَّ الأمر سيان، هل نزلت إلى القبو لتقطع التيار الكهربائي والماء؟ لا، يفضل ألا نفعل ذلك إذ قد يعود البستاني ويظهر ثانية، لا تنسَ أن تغلق نوافذ المشلح، سأذهب حالًا، ولكن اترك قارب البدالات فقد أخبرت المستأجرين بإمكانية أخذه إن أرادا ذلك. المناشف، ماذا

سأفعل بها؟ وزعيها هدايا إن كنت لا تحتاجين إليها، هل ستساعدني في حزم المصباح، لم يعد هناك مكان لأي شيء، يبدو أنك على حق.
عندما انتقلت، كان البيت لا يزال في عهدتها وعهدة أبيها، ولكن لم يكن يحق لهما بيعه، ما دام وضع الملكية لم يتوضح بعد. إنه في عهدتها وعهدة أبيها، والهاتف ما زال يعمل. لكن الكهرباء والماء قُطعا عندما أوقف المستثمر الإصلاحات المعمارية وترك البيت على حاله، وكان أبوها قد ترك له حرية التصرف بشؤون قطعة الأرض ماليًّا. ولكن في حال عودتها، كان بوسعها بحركات بسيطة إعادة كل شيء إلى ما كان عليه. ولكن بعد مدة طويلة اتصل به هذا المستثمر ثانية وطلب منه قلب تربة الطريق أمام البيت، وقطع كبل الكهرباء من عدة أماكن، وكسر تمديدات الماء، كي لا تسبب له مصاريف إضافية في حال خطر ببال أحدهم أن يعشش في هذا البيت الخالي، لكنه لم يمس خط الهاتف، فقد حصل المستأجران على إذن من أبيها بنقله إلى المشغل.
بأشغال من هذا القبيل في قطع الأرض حول البحيرة كان يتمكن خلال السنوات الماضية من زيادة دخله بعض الشيء. في تلك الأيام كانوا يسمون أشغال السوق السوداء غير الخاضعة للضرائب «أعمالًا خرقاء»، كأن تبني شيئًا من دون ترخيص. أما الآن فقد باتت تطلق هذه الصفة غالبًا على إغلاق البيوت وهدمها. بناء على رغبة أخي دانييل غير الشقيق قلب سابقًا تربة الدرب الرملي أمام بيت دانييل الصيفي أيضًا، وقطَّع الخط الكهربائي وكسر تمديدات المياه. بعد احتراق بيت شملينج الصيفي ساعد في أعمال الترحيل.
بعد الحريق هبط سعر قطعة الأرض كثيرًا فجأة، ولكن ليس إلى الحد الذي يلائمه، ففي سنه ليس من الملائم أن يشتري قطعة أرض عارية، ولا سيما أنه لا ورثة له. لا شك في أن العاصفة القادمة ستقتلع الغطاء البلاستيكي مجددًا، إذ لا يمكن اللجوء إلى استخدام المسامير في سقف من القش، وما حاول تثبيته وشده على سطح المشلح كان حقًّا عملًا أخرق، هكذا فكر وشد الخيطان ثانية. عندما يأتي دور بيته هو بشأن وضع الملكية الأصلية، وقد علم بأن طلبًا بهذا الصدد قد قُدِّم، فسيبحث لنفسه في عاصمة المحافظة عن مسكن صغير بتدفئة مركزية مشتركة وخدمات تسوق مناسبة وسعر ملائم.

البستاني

في عطلات نهاية الأسبوع الشتوية عندما يأتيان للتزلج على الجليد يرى المستأجران من الباطن آثار البستاني على الثلج، ممتدة من غرفة الضيوف بالاتجاهات كافة عبر المرجين في الأعلى وعبر الحديقة الأمامية والبوابة. لكن آثار الأقدام تدل على أن صاحبها قد سار في هذا الاتجاه مرة فحسب. وعندما يلتقيان البستاني، ونادرًا ما يحدث هذا، كانا يسألانه عما إذا كان يحتاج إلى شيء ما ليحضراه له في الزيارة المقبلة: الخبز الطازج من عند الخباز في القرية أو البيض أو المكرونة أو الفواكه أو المشروبات. لكن البستاني كان يشكرهما دائمًا هازًّا رأسه وهو يتابع طريقه وفي فمه عقب سيجار مطفأ. يحكى في القرية أن المستأجرين من الباطن، بعد سقوط جدار برلين، قد باعا بورسلين مايسن بأبخس الأثمان للغربيين. ويحكى في القرية أن البستاني منذ مدة طويلة لم يعد يأكل سوى الثلج.
عندما جاءت سيدة البيت من برلين، كي تخلي البيت للمستثمر، لم يكن البستاني موجودًا. في غرفته وجدا كالعادة طاولة وكرسيًّا وسريرًا وبعض قطع الملابس مرمية على مشجب، والحزمة المطاطية في الزاوية. أما البستاني نفسه فلم يكن موجودًا. والمستأجران من الباطن لا يدريان جوابًا عن سؤال: «أين البستاني؟»، فهما لم يلتقياه منذ مدة طويلة، لكن مشيته في الآونة الأخيرة بدت لهما متعثرة، ولا سيما نزولًا. «هل أصابه مكروه يا ترى؟»، «لا». يجيب المستأجران من الباطن، بأنهما لا يعتقدان ذلك. ومع صاحبة البيت وصديق طفولتها من القرية بدأ البحث الجذري عنه في قطعة الأرض، وأخيرًا على الشاطئ كله، فكانت النتيجة أنه حتمًا لا يقيم في البيت.
منذئذ لم يعد يرى أحد البستاني. وبعد شهرين وافقت سيدة البيت وأبوها أخيرًا على فصل غرفة البستاني عن البيت الرئيسي بجدار، منعًا لامتداد فطور العفن من تلك البؤرة إلى بقية البيت.

المالكة الأصلية غير الشرعية

ممثل الادعاء: «لا بد من إخلاء المنزل وقطعة الأرض وتسليمهما للمالك مقابل تعويض مالي عن الأعمال المنجزة فيهما». ممثل الدفاع: «هل هذا التملك نزيه؟ ألا يوجد قانون لاستخدام العقار ولتفادي النزاع عليه بين الطرفين؟». المواد تسعة وثمانية وخمسة من القانون المدني تتعلق بأساس مطلب الادعاء. لا نزاع حول الأمر، بل هناك ملكية مباشرة، والملكية المباشرة تعني أن المالك صاحب سلطة على مُلكه، حسب المادة ١٧ من القانون المدني. وغير وارد أنه يحق للطرف الثاني تقاضي مبلغ معين لأنه قد استخدم العقار وقطعة الأرض وأجرى عليهما تعديلات تناسبه. مطلب ممثل الدفاع بالتعويض قائم، بما يعادل الفارق بين القيمة الراهنة اليوم وقيمة ما قبل الاستثمارات التي أدخلت عليه، أي وقت بدء استخدام العقار. مفاوضة الصلح. من أجل بلوغ الدقة التامة لا بد من الاعتماد على السجل العقاري العام. على الهامش العريض للسجل هناك إشارة دين عقاري. مع توفر الرغبة في الصلح، وأضيف: «مع تنفيذ الصلح فإن جميع المطالب المتعلقة بموضوع النزاع حول العقار المذكور تُعَد منفَّذة».

ها هي الآن تريد العودة ثانية إلى البيت. بالمفتاح الذي بقي حتى الآن معلقًا في حلقة مفاتيحها، والذي يفتح ويقفل جميع أبواب البيت ومستودع الحطب، بمفتاح الأمان المهترئ، ماركة «تسايس إيكون»، والذي كان عليها تسليمه من الناحية القانونية قبل يومين. بهذا المفتاح تريد لآخر مرة أن تفتح الباب الذي يستعصي قُفله بعد نصف دورة بالمفتاح. ألواح الباب الزجاجية تصلُّ بخفوت، ومن الزخارف الحديدية التي تدعم الألواح الزجاجية تتساقط على الأرض شظايا متناثرة حمراء وسوداء. ترفع الباب كما كانت تفعل دائمًا، كي يكمل المفتاح دورته في القفل، ثم تدفع الباب حتى يصطدم بالجدار، وتضع أمامه قطعة الحجر الجاهزة دائمًا ثم تدخل.

باب حجرة أدوات التنظيف ذو الرسوم مرفوع من مكانه، ولذلك فإن أول ما تراه عند دخولها البيت ليس جنة عدن في اثنتي عشرة صورة مربعة، بل مقشة عتيقة ومكنسة ومجرفة وبعض المماسح. باب غرفة المعيشة مرفوع من مكانه أيضًا، ولذلك ليس عليها أن تضغط القبضة النحاسية لتدخل، ولن تسمع التأوه المعدني عندما تلج الغرفة. كل الخشب الذي يغطي الجدارين والذي هاجمه الفطر قبل تسع سنوات كان لا بد من نزعه أو اقتلاعه من مكانه، والمقعد الطويل غير موجود للسبب نفسه، وكذلك المائدة الطويلة والبابان، فقد نقلها العمال اليدويون حينذاك إلى مشلح السباحة. كان المشلح بالغ الصغر، فكان لا بد لهم من وضع المائدة بشكل عمودي هناك، وهي ما

زالت على وضعها حتى الآن، فقد رأتها في أثناء دخولها من شقٍّ في درفات الشبابيك. مفتاح المشلح ما زال معلقًا كالعادة على لوحة المفاتيح إلى جانب مفتاح المشغل، وما زال الغماز الذهبي يتأرجح عليه كالسابق. ولوحة المفاتيح ما زالت معلقة في الزاوية بجانب المدفأة التي لم تعد موجودة، فقد كانت مستندة إلى الجدار المصاب بالفطور. لقد امتد الفطر حتى الطابق الثاني فيما كانت تعمل هي خارج البلاد، وفيما تفاوض أبوها طوال خريف وشتاء وربيع مع المستثمر لإجراء الإصلاحات الضرورية، وعرض عليه حقوق التصرف بالبيت الذي ما زال ملكهما رسميًّا. لم يسمح لهما بالبيع ما دام القرار النهائي لم يصدر بعد من الدائرة العقارية، ولكن بعد تخفيض قيمة المدخرات المصرفية في شرق ألمانيا إلى النصف لم يعد بوسعهما صيانة البيت من حسابهما المصرفي، ثم جاءت مقتضيات الظروف الملحة، أي ملف قطعة الأرض وفحص علاقات ملكيتها، المسجل بالرقم ٦٥٤.

لم يكن والدها يأبه بالطبيعة كثيرًا، وكان منذ شبابه يلفظ هذه الكلمة «الطبيعة» بشيء من الاحتقار، مثلما كان يصرح دائمًا بأنه يكره حش المرجين، وأن الورد يشعره بالملل، والسباحة لا تهمه، لكنه كان يغطس أحيانًا بين القصب كي يصطاد سمك الكركي بالخطاطيف. ولهذا فإنها لم تستغرب أنه بعد وفاة والدتها مباشرة قد أدخلها شريكة في ملكية البيت في السجل العقاري، حيث سُجلت ملاحظة شطب مشكلة من خطين أفقيين تحت السطر الأول والسطر الأخير متصلين بخط مائل من الأعلى إلى الأسفل. ولم تستغرب أيضًا أنه منذ معرفته بأن ورثة زوجة المهندس المعماري في غرب ألمانيا قد رفعوا طلبًا برد حقوق ملكيتهم، لم يخرج إلى قطعة الأرض والبيت ولا مرة واحدة، ولم يشارك في تفريغ البيت، ولا سيما بعد أن توصل إلى اتفاق نهائي مع المستثمر. صديق طفولتها الذي ساعدها في أعمال التفريغ كان أول من اكتشف فطر الخشب. ذات مرة، لم تتكرر في أثناء السنوات الطويلة التي بقي فيها البيت خاليًا، وهي ووالدها ينتظران قرار الدائرة العقارية، قال لها والدها شيئًا لم تسمعه من فمه سابقًا، إنه كلما نظر إلى مثل هذه الطبيعة ذات الروابي والبحيرات يشعر في نفسه وكأنه يسمع شخصًا يتكلم بالروسية، لغة البلد الذي ولد فيه. لكنه لم يحدد تمامًا ماذا قصد بذلك. كل ما كانت تعرفه هو أنه بعد مغادرة المدرسة الداخلية التي وضعه والداه فيها طوال أربع سنوات لإيمانهما بمبدأ التربية الجماعية، كان كبيرًا بما يكفي لحش المرجين. الطبيعة.

ثمة أشجار متجذرة بقوة بسبب تصريف مياه المطر إليها. هناك ست أشجار لا بد من قطع جميع أغصانها. وبما أن لحق الاستفادة المصير نفسه مثل عقود شراء العقارات، بمعنى أنه غير ساري المفعول بعد، فهل سيُعار الخشب أم يُخزن أم يُتلف؟ وليس بإمكان الجهات التنفيذية وفقًا لوسائل التعرف المعمول بها، أن تقر مبلغ التعويض المناسب، بل مبلغ التعويض إضافة إلى

الضريبة القانونية، وبمفعول رجعي ومستقبلي.
أزال المستثمر الفطور، وزود السطح بغطاء جديد، واقتلع المرحاضين بنيَّة تجديدهما، سد غرفة البستاني بجدار بسبب الرطوبة الشديدة فيها، وفتح فيها جدارًا يؤدي إلى الجراج فكسب بذلك غرفة جديدة، ولكن عندما خابت آماله بالتوصل إلى اتفاق مع الورثة يؤدي إلى امتلاكه الدار، قطَّع خط الكهرباء وترك الدار على حالها. مضى وقت طويل لم تأتِ في خلاله على ذكر قطعة الأرض مع والدها. القانون المدني، الجزء ٣ وما يليه، المادة ١ تسري على قطعة الأرض، ترسيم حدودها، توصيفها، موجوداتها.
الدَّرَج المؤدي إلى الطابق الثاني مغطى بالغبار، وأجزاء من ملاط السقف المقوس متساقط على الدرجات ومتكسر. حتى أرضية الطابق الثاني الفلِّينية التي كانت رائعة مغطاة الآن بطبقة متساوية من الغبار، أبنية معزولة عن بعضها كليًّا لا تحتاج إلا إلى الرثاء. لم يتبقَّ من الحمَّام سوى النافذة ذات المربعات الملونة، أما المغسلة والدوش والمرحاض والبلاط فهي غير موجودة. يمكنها الآن أن ترى عبر شقوق عوارض الأرضية إلى البهو، تقريبًا إلى حيث كانت جدتها في أمسيات مشاهدة التلفزيون تجلس على أكثر كراسي الحديقة راحة، كبقية دلالة على مكانتها الشخصية البارزة. وفي غرفة العصفور الحديدي الصغير التي أمضت فيها جميع إجازاتها الصيفية طوال طفولتها، تفتح خطوة فخطوة، بما يتعارض مع أمر إخلاء قطعة الأرض، الباب الثقيل للخزانة المخفية، السلطة الذاتية الممنوعة، باب طفولتها الخفي الذي يرسم دولاباه الخفيان نصف دائرة على الغبار. علّاقات الثياب الخاوية ما زالت في مكانها كما تركتها بنفسها عندما اضطرت إلى إخلاء البيت. تستطيع الآن من داخل الخزانة الكبيرة أن تنظر إلى غرفة جديها، لأن الجدار الفاصل قد أزيل، بناء على أمر اضطراري عند تبديل علاقة الملكية نظرًا إلى عدم كفاءته، مع تأنيب من الجهات المسؤولة. والخزانة التي تخرج منها إلى غرفة جديها ما زالت تفوح منها حتى الآن رائحة النعناع والكافور. السقف في غرفة عمل جدتها متآكل من روث وبول النُّموس، وهناك على مكتبها أعواد متساقطة من قصب السطح، وثمة ثقب في السقف يرى منه المرء عتمة العلية. ستائر النوافذ ما زالت مثبتة على السكك في بعض المواضع، وبقية القماش مدلاة إلى الأسفل بصورة مائلة مسببة ثنايا في غبار الأرضية. ومصاريع النوافذ مشدودة بصورة لم تعد تسمح بفتحها ثانية. ثمة نقص في مواد العزل الآن سيؤدي إلى تفاقم الوضع مستقبلًا. طلب المساعدة مرفوض، لأن مضمونه غير قابل للتنفيذ ولا يمكن الاعتماد عليه. اعتراض. مبدئيًّا، الأمر يتعلق بالنزاهة. فقط في حال تزعزع الأساسات بالدليل القاطع.
من دون أن يخطر ببالها التفكير في الأمر أخذت تزيل أعواد القصب عن طاولة المكتب، ونزلت إلى الطابق الأول ثانية كي تحضر مكنسة ومجرفة وفرشاة يد وممسحة. أزالت أولًا نسيج العناكب من الزوايا وعن النوافذ في

مكتب جدتها وغرفة جديها والردهة وغرفة العصفور الصغير، ثم مسحت الغبار عن ألواح الخشب التي تغطي الجدران، ثم كنست الأرض غرفة فغرفة، وملأت السطل العتيق الذي وجدته في المطبخ بالغبار والأوساخ وعيدان القصب وروث النُّموس المنتشر هنا وهناك، ثم كنست الدَّرَج درجة فدرجة نزولًا، ورمت محتوى السطل في الخارج تحت الشجيرات. ومشت من ثَمَّ بين المرجين متجاوزة شجرة البلوط الكبيرة نزولًا إلى البحيرة وفي يدها السطل الفارغ. كان يجب عليها قبل ستة أشهر أن تنهي عقد المستأجرين من الباطن، بعد أن أعيد ضم قطعة الشاطئ تلك إلى قطعة الأرض اليهودية، التي كانت في الأصل جزءًا منها. ولهذا السبب رأت قطع اللسان الخشبي مكدسة في الفسحة أمام الورشة. ولأن السياج بين الأرضين لم يستعِد وضعه القديم بعد، فقد صممت على التوجه إلى البقعة القديمة حيث كان الدرب يؤدي إلى اللسان الخشبي، وحيث لا يوجد الآن سوى جذع شجرة واحد، فقرفصت هناك لتملأ السطل من ماء البحيرة. تمسكت بالصفصافة بيد، وجرَّت السطل بالأخرى على أرض البحيرة، ثم عادت إلى البيت وبدأت تمسح الطابق الثاني أولًا. كان عليها أن تنزل خمس مرات إلى البحيرة لجلب ماء نظيف قبل أن تطمئن إلى نظافة جميع الغرف. تمكنت ببعض الجهد من فتح باب شرفة غرفة العصفور الصغير لتسريع جفاف الأرضية. هبَّ هواء الصيف الدافئ إلى البيت عبر النافذة المشرعة، وعندما خرجت إلى الشرفة وجدت كل شيء على حاله كما كانت تعرفه دائمًا. سقط نور الشمس على شجرة الصنوبر المجاورة للبيت دلالة على أن اليوم سيكون جميلًا.

يحتاج الطابق الأرضي إلى جهد أكبر لتنظيفه، بسبب انتزاع المدفأة من مكانها وفتح ثغرة في الجدار إلى الجراج، وبسبب سد غرفة البستاني بجدار. لن يكفيها الوقت اليوم لتنظيف النوافذ، لذلك أنزلت مساءً الأباجورات السوداء بإدارة الأيدي المعدنية المخبأة في الجدران، أقفلت الباب من الداخل، واستلقت لتنام في خزانة غرفة العصفور الصغير. وفي اليوم التالي نظفت النوافذ، وفي اليوم الذي تلاه أحضرت البابين من مشلح السباحة وركبتهما في مكانيهما، ثم جرَّت المائدة الطويلة الثقيلة حتى البهو ونصبتها حيث كانت دائمًا. وجدت في الجراج الكراسي ذات الحروف الأولى المنقوشة عليها، أحضرتها، لكن الوسائد الجلدية التي تغطيها كانت متعفنة فتركتها. عودت نفسها أن توقف سيارتها على طرف الطريق العام أعلى الرابية، ثم تمشي من هناك هابطة جبل الرعاة بين الأدغال وأجمات التوت البري لتلتف من ثَمَّ وتعبر الدرب الرملي بحيث لا يراها أحد. لم تصادف قَطُّ أحدًا من الجيران، إما لأن بيوتهم قد هدمت أو لأنها خالية مثل بيتها. مرة، ذات يوم ماطر، رأت من نافذة غرفة العصفور الصغير صديق طفولتها يعبر المرج الكبير نزولًا، ثم يرجع حاملًا السلم الطويل الذي كان معلقًا طوال الوقت على الجدار الخلفي للمشغل، فيسنده إلى سطح مشلح السباحة، يصعد درجاته،

يشد الغطاء البلاستيكي الذي لعبت به الريح فوق قصب السطح، ويثبته عند الزوايا.
في صباح اليوم الذي جاءت فيه السمسارة إلى البيت مع زبونة لأول مرة، كانت هي لحسن الحظ لا تزال نائمة في الخزانة الخفية، حيث حفظت أيضًا زوادتها من الطعام، إضافة إلى بعض الثياب للتبديل. لم تستيقظ إلا عندما أمسكت السمسارة بيدها القبضة النحاسية لباب الخزانة الخارجي المسطح الذي ركبت عليه المرآة الطويلة، وفتحته وهي تقول للزبونة: ـ وهنا توجد مرآة.
سمعت الزبونة تقول وهي تلمس تلبيس الجدار بخشب القيقب كثير العقد: ـ الخشب بدأ يتماوج للأسف.
فأجابتها السمسارة:
ـ هذا أمر يسهل إصلاحه.
وشدت بجهد على ما يبدو باب الشرفة، قائلة: ـ وهذه الإطلالة من هنا.
فأجابتها الزبونة:
ـ الفوضى تعم المكان نوعًا ما.
فعلقت السمسارة:
ـ الشاطئ هنا بلا جدال هو الأفضل، ولا سيما أن الشمس تغادر في الغرب.
وضحكت، لكن الزبونة لم تشاركها الضحك، فأضافت السمسارة: ـ ثم إن قطع الأرض على الجانب الآخر مقطوعة عن البحيرة بسبب درب المنتزه.
ـ أليس لديها اتصال مباشر بمياه البحيرة؟
ـ نعم، معظمها ليس لديها اتصال مباشر بماء البحيرة. انظري مثلًا إلى هذا العصفور المنحوت في حديد درابزين الشرفة.
قالت الزبونة:
ـ رأيته.
قالت السمسارة:
ـ لا شك أن وراءه قصة حب.
فصمتت الزبونة. تابعت السمسارة قائلة: ـ المهندس المعماري كان عضوًا في مجموعة ألبرت شبير في إطار مشروع جرمانيا.
قالت الزبونة:
ـ هكذا إذن، هذا مثير للاهتمام.
ثم عبرت السمسارة مع الزبونة الدهليز إلى غرفة الجدين. وحتى من مكانها بقيت قادرة على سماع كل ما يقال هناك، إذ إن ما يفصل بينهما لا أكثر من باب رقيق. قالت السمسارة: ـ لن تجدي اليوم من يبني لك مثل هذه الخزائن الجدارية.
قالت الزبونة:
ـ هذا صحيح.

وأضافت:
ـ ولكن ثمة رائحة غريبة تشي بوجود قطط أو نُموس.
فأجابت السمسارة:
ـ حتى الآن لم أقابل أي نمس في هذه الدار.
وتابعت طريقها ضاحكة إلى غرفة المكتب، حيث ألواح الباب الزجاجية حليبية اللون تصلُّ قليلًا. لا شك في أن الزبونة قد لحقت بها، فقد ساد الهدوء. بعد قليل عادت المرأتان. كانت السمسارة ما زالت تضحك، أو أنها تضحك مجددًا لسماعها: ـ هل الدار تحت حماية الآثار؟
ـ لا، لا، للأسف.
فسعلت الزبونة، ثم نزلت المرأتان الدَّرَج. وبعد أن ساد الهدوء كليًّا مجددًا خرجت سيدة البيت السابقة من الخزانة، وتابعت عبر نافذة غرفة العصفور الصغير عبور السمسارة مع زبونتها الحديقة، وتوقفهما أحيانًا وهما تشيران في هذا أو ذاك الاتجاه، إلى شجرة البلوط مثلًا التي سقط منها غصن كبير قبل مدة قصيرة، أو إلى سطح مشلح السباحة، وهما تتابعان حوارهما في أثناء مشيتهما البطيئة، فتهز هذه رأسها موافقة أو تهزه الأخرى معارضة، إلى أن تتوقفا مجددًا لمناقشة نقطة ما بصورة تفصيلية.
بعد هذه الزيارة الأولى للسمسارة مع الزبونة أخذت ترفرف أمام شباك المطبخ قطعة قماش مجعدة مقاومة لعوامل الطقس، وقد كُتب عليها «للبيع» مع رقم هاتف باللون الأبيض على خلفية زرقاء قاتمة. أحيانًا عندما تعصف الريح كان يُسمع صوت تمزق القماشة عن الخيوط التي رُبطت بها حتى إلى داخل البيت. بعد مدة انفك أحد الخيوط التي ثُبتت بها القماشة، فكانت مالكة البيت غير الشرعية، عندما تنزل جبل الرعاة، ترى كيف تطوي الريح الوجه المكتوب بالأبيض ثم تتركه لينفرد مجددًا.
لقد باتت الدار خاوية الآن، إلى درجة أنها لو استطاعت أن تأمرها بأن ترتفع في الهواء وتتحرك معه بعيدًا فإن وزنها لن يشكل أي عائق. والنور الذي يدخل عبر النوافذ الملونة سيرحل مع الدار، وحتى ألق الأرضية التي لُمعت بالشمع مجددًا، وكذلك صرير الدرجات الثانية والخامسة عشرة والدرجة ما قبل الأخيرة. أخذت تتذكر الآن، كيف أمرت جدتُها آنذاك بنقل مشلح السباحة الصغير، وكيف رافقت هي وصديق طفولتها العمال طوال الطريق صعودًا، والعمال يحركونه بسطحه القصبي ونوافذه ودرفاتها ومظلته الأمامية ذات العمودين، ببطء على جذوع أشجار كالعجلات بين أشجار جار الماء والبلوط والصنوبر صعودًا إلى سطح الرابية. وعندما انتصب أخيرًا في مكانه الجديد كانت الإطلالة على البحيرة من بابه المسقوف بالمظلة الخشبية أجمل من السابق. لكنها لم تعد تدري الآن إلى أين ستتجه الريح.
في أثناء تقدم الصيف نحو نهايته رأت في الحديقة من نافذة غرفة العصفور الصغير ولمرات عديدة السمسارة مع هذا أو ذاك الزبون. أحد الزبائن كان

يختبر بمقدمة حذائه مدى ثبات البلاطات الحجرية التي بُني بها دَرَج الحديقة، وطلب آخر من السمسارة أن تريه بئر المرحاض، وأخذ ثالث يهز السور الفاصل مع الجيران والذي نخر العفن دعاماته الخشبية، واستمر في الهز إلى أن انخلعت دعامتان ومالتا جانبًا، ممسوكتين فقط بالأسلاك المشدودة فيما بينها. ولأن الدار وقطعة الأرض ليستا زهيدتَي الثمن فقد استمرت لمدة طويلة في سماع حوارات السمسارة وزبائنها، وكثيرًا ما فُتح باب الخزانة ذو المرآة، وكثيرًا ما دار الحديث حول الإطلالة الاستثنائية وحول مشروع ألبرت شبير وحول القطط والنُّموس، والضحك كذلك.

ـ هل الدار تحت حماية الآثار؟

ـ لا، لا.

ضحك وسعال. ولأن السمسارة ليست المخوَّلة الوحيدة ببيع الدار، إذ قد يحدث في أي لحظة أن يأتي أحد أفراد مجموعة الورثة قادمًا من النمسا أو سويسرا أو من الجزء الغربي من جمهورية ألمانيا الاتحادية ليتابع مجريات الأمور بنفسه، أو ليرسل بعض العمال اليدويين، أو ليري الدار لأحد معارفه، فإن السمسارة لم تستغرب قَطُّ أن وضع الدار في هذه الزيارة يختلف عما تركته عليه في الزيارة السابقة.

كلما كانت تتطرق مع زوجها إلى الحديث عن قطعة الأرض، ولا سيما أنها الآن المالكة الأصلية غير الشرعية، كان يواجهها دائمًا بقوله: «ماذا تبغين؟ لقد أمضيتِ وقتك هناك». لم تستطِع أن توضح لزوجها أنها منذ لاح عدم إمكانية قضائها شيخوختها في هذا البيت، بات الزمن الماضي يتنامى وراءها، زمن طفولتها الجميل الذي تجاوزته منذ أمد بعيد، والذي عاد الآن بعد تأخر طويل ليثبت كونه السجن الأجمل لأن تقضي فيه بقية حياتها. وكأن الزمن قد ربط المكان بأنشوطاته فثبته هناك حيث كان، ربط الأرض بنفسه، وثبت نفسه عليها بشدة وربطها مع صديق الطفولة الذي لم ترَه منذ تسع سنوات، والذي يرجح ألا تراه أبدًا، بصورة متينة إلى الأبد.

سمعت صوت انغلاق أبواب سيارة المالكين الجدد عند الدرب الرملي، ثم صوت باب سيارة السمسارة، وأخيرًا صوت باب سيارة المهندس المعماري. لم تأتِ السمسارة معهم إلا لتنزع قماشة الإعلان المقاومة لعوامل الطقس والمثبتة على نافذة المطبخ. لن تضطر السمسارة هذه المرة إلى مرافقة الزبائن الذين صار اسمهم المالكين الجدد في جولة عبر الدار، ولن تضطر إلى تكرار جملها التي لطالما كررتها في أثناء الأيام العشرة الماضية، كي تتقاضى في النهاية ٦٪ من قيمة الشراء، إضافة إلى ضريبة القيمة الفائضة. وحتى المالكون الجدد والمهندس المعماري لم يدخلوا الدار، بل عبروا المرج الكبير وأشاروا من هناك أولًا إلى البحيرة، ثم إلى مشلح السباحة، وأخيرًا إلى المساحة التي ينتصب البيت فوقها.

لم يسبق أن ساد السلام جو البيت كما في ذلك اليوم عندما، ولآخر مرة،

مسحت غباره وكنسته وشطفت الأرضية ولمعتها من ثَمَّ بالشمع، عندما فتحت النوافذ كافة التي أمكن فتحها كي تسمح للهواء المنعش بالتغلغل إلى البيت، ثم لتغلق لآخر مرة النوافذ، وليتحلل لون نور النهار لآخر مرة إلى الخضرة، وإلى الزرقة الداكنة نوعًا ما، وإلى الحمرة أو البرتقالية، في ذلك اليوم الذي غسلت فيه الستائر بماء البحيرة وعلقتها مجددًا وأسدلتها، ثم أغلقت الباب ذا الألواح الزجاجية الحليبية المؤدي إلى غرفة المكتب، كما كانت تفعل جدتها دائمًا عندما تكتب، ولتنسحب أكثر فتغلق وراءها أيضًا باب غرفة الخزانة. عندما كانت جدتها على فراش الموت أخرجت لها أجمل قمصان نومها، فغسلته وكوته ليرافق الميتة على الطريق عندما تحين الساعة. وقد وعد المسؤول في مؤسسة دفن الموتى بأن يلبس الجدة قميص النوم عند تحضير النعش وتصويرها به، بأفخر قمصان نومها. لا شك إذن في أن عمال المؤسسة قد نزعوا عنها قميص نومها المطرز بالتخريمات قبل إدخال الجثمان إلى فرن الحرق، ولا شك أيضًا في أنهم صوروها وحفظوا الصورة في دُرج أحد مكاتبهم. وكثيرًا ما عاودتها في المنام في الآونة الأخيرة صورة الجثمان في زينته الجميلة، لكن الغريب في الأمر هو أن وجهها كان لهندية حمراء. قد يُعزى الأمر إلى أن إحدى الجرائد التي استخدمتها لتلميع النوافذ تضمنت مقالة تقول إن سكان الأزتيك كانوا يعدون تنظيف الدار عملية مقدسة.

أقفلت الآن أيضًا باب غرفة العصفور الصغير، ثم باب الحمَّام الذي لم يعد له أرضية، ونزلت الدَّرَج الذي تطقطق درجاته الثانية والخامسة عشرة وما قبل الأخيرة، أنزلت بالأكرة المعدنية المخبأة في الجدار أباجورات النوافذ السوداء، واستمرت في الانسحاب لتغلق باب غرفة المعيشة الذي تطلق قبضته النحاسية تنهيدة معدنية، ثم أغلقت باب المطبخ، وضعت الدلو والمكنسة والمماسح وفرشاة اليد والمجرفة ومنشفة الأرضية في أماكنها في خزانة أدوات التنظيف، وأغلقت بابها الذي كان حسب اعتقاداتها الطفولية يؤدي إلى جنة عدن، ثم تراجعت إلى الخارج وأقفلت أخيرًا الباب الخارجي للبيت، علمًا بأنها لم تدرِ، كيف يمكن أن يحدث ذلك، بما أن كل ما تقفل عليه يعيش في أعماق داخلها، في حين أن ذلك الجزء من العالم الذي تنسحب إليه يبدو بعيدًا جدًّا. أقفلت الباب الخارجي ومشت متجاوزة الزهور الخلنجية بالغة الكثافة إلى يسار البيت، «شركة مانِّسْمان للحماية من الغارات الجوية» كان مكتوبًا على القضبان الحديدية لنوافذ القبو. فتحت باب القبو وأغلقته وراءها، وغادرت عبر باب سور الحديقة الصغير وهي تضع في جيبها المفتاح المتآكل الذي سرعان ما لن ينفع إلا لفتح الهواء. اكنسوني بعيدًا باعتباري فائضة. هذا خارج نطاق سلطة القانون. لمراجعة إضبارة الوقائع «B٣»، لأخذ العلم.

خاتمة

في هذا الموجز ـ كما في سائر الموجزات الأخرى المعمول بها في هذا البلد بناءً على الأحكام القانونية سارية المفعول ـ ثمة أمران في غاية الأهمية: أولهما أن كل شركة هدم ملزمة قبل هدم الدار باستخراج جميع الإضافات المعمارية الملحقة بالدار، سواء كانت خشبية (شبابيك، أبواب، خزائن جدارية، تلبيسات، أدراج)، أو معدنية (أجهزة تدفئة، أنابيب، قضبان نوافذ معدنية) أو في حال الإتاحة السجاد الأرضي الذي لا بد من اقتلاعه وانتقائه نوعيًّا، كي يخفف ما أمكن من كلفة التعويض العاطفي عند البدء بعملية الهدم. عند البدء بتفكيك البناء ينزع فقط الزجاج من مكانه في النوافذ، ويحتفظ به داخل الدار لترحيله من ثَمَّ مع بقية أنقاض الدار، لأن الزجاج من أصل معدني مثل بقية الأنقاض.

والأمر الثاني هو تنفيذ الهدم بأقل ما يمكن من التسبب في الاهتزاز، للتخفيف من تحميل البيئة أعباء الغبار والضجيج، ومن احتمال التسبب بشروخ في الأبنية المجاورة. لهذا تتركز الخطوة الأولى في تفريغ الدار من جوهرها، وفي حالتنا هذه بشأن دار لعائلة واحدة بهذه المساحة يحتاج الأمر إلى خمسة رجال يعملون على مدى ثلاثة حتى خمسة أيام من أجل تجهيز الدار لعملية الهدم الفعلية.

يجري من ثَمَّ ردم الدار من قبل مجموعة من ثلاثة أشخاص، بمن فيهم رئيسهم الذي يقود الحفارة. أما المساعدان فيجمعان في خلال عملية الهدم الأجزاء الصغيرة، الخشبية والمعدنية، التي طمرها الردم، ثم يوزعانها على الحاويات حسب النوع. على المساعدين إضافة إلى ذلك إخماد الغبار عن طريق حجاب مائي.
على المجموعة الأخيرة أن تعمل نحو أسبوع ونصف الأسبوع، وأكثر آلاتها أهمية هي الحفارة الهيدروليكية، وهي جهاز يتراوح وزنه بين ٢٠ و٢٥ طنًّا مزود بذراع طولها الأقصى تسعة أمتار، يتحكم بحركتها محرك هيدروليكي. تبدأ هذه الحفارة عملها بنقر السطح، اعتمادًا على كماشة نوعية تفرغ منتخباتها في حوض، بحيث يبقى بالإمكان فرز عوارض السقف الخشبية وتحويلها إلى حاوية الخشب، في حين تتعرض بقايا الردم إلى الغربلة.
ثم تبدأ عملية إزالة الجدران حسب الحالة، إما قطعة فقطعة من الأعلى إلى الأسفل وتوزيعها على الحاويات حسب الاختصاص، أو بالملعقة الهيدروليكية التي تساعد في نقل القطع الصغيرة المهدومة أو في استئصال الأساسات، أو أيضًا في إمالة جدار بقي وحيدًا فتدفعه حتى يتهاوى على جانبه.
هذه الدار يقارب طولها ١٤ م وعرضها ٨ م وارتفاعها ما يعادل طابقًا ونصف الطابق، إضافة إلى القبو، بما يعادل ٨ م إضافية، وبناءً على ذلك فإنها تحتوي على نحو ٩٠٠ متر مكعب إنشائي × ٠.٢٥ = ٢٢٥ مترًا مكعبًا

من المادة الصلدة. ومن أجل حساب عدد نقلات الشاحنة لا بد للمرء من أن يضع في الحسبان حجم المادة المردومة بما يساوي نسبة ١.٣. وبناءً على ذلك فإن حجم مادة ردم هذه الدار يعادل ٢٩٠ مترًا مكعبًا. فإذا حسب المرء أن نقلة كل شاحنة تعادل ١٧-١٨ مترًا مكعبًا من مادة الردم، فسيحتاج المرء إلى نحو ١٧ سفرة بالشاحنة لنقل المواد جميعها إلى أحد المكبَّات الكثيرة حول برلين. كثافة الماء تعادل ١، فيما تعادل كثافة الخشب ٠.٢٥، ويبدأ حساب كثافة مواد الردم بـ ٢.٢. وهذا هو عنصر حساب المعادلة بالأطنان. فالثقل يُستمد أساسًا من المادة الصلدة. وزن مشلح السباحة الذي لا قبو له (بطول ٥.٥ م وعرض ٣.٨٠ م) والذي تتكون جميع جدرانه من خشب، لا يزيد وزنه على ٤ أطنان، فيما يساوي وزن الدار الرئيسية ٥٠٠ طن.

طوال أسبوعين يشتغل خمسة رجال أولًا، ثم ثلاثة على قطعة الأرض. استراحة تناول الفطور من ٩-٩.٣٠ واستراحة تناول الغداء من ١٢-١٣. يجلس الرجال في أثناء الاستراحات على الحشيش كي يأكلوا أو يشربوا، بعضهم يستند إلى جذع هذه أو تلك الشجرة وهو ينظر إلى البحيرة. وعندما انتهوا كليًّا من إزالة البيت، ولم يتبقَّ هناك سوى حفرة لتذكر بالدار التي كانت، بدت قطعة الأرض فجأة أصغر بكثير مما هي عليه. وقبل أن تشيد في المكان نفسه دار أخرى بدت الطبيعة للحظة قصيرة مشابهة لنفسها.

شكر

أتوجه بالشكر إلى إندرا فوسوف، وبِآتِه بوفاللا، ومجلس إدارة مدينة برلين، ولمؤسسة أوقاف بوش، لمساعدتهم لي في تأمين الإقامة والبحث العلمي لتحقيق هذا الكتاب.
كما أتوجه بالشكر لتحضير الملفات والرسائل العديدة، والمادة الفيلمية والفوتوغرافية الأساسية في تحضير كتابي، إلى السيدة الدكتورة ديكمان من مركز موزِس مندلزون في بوتسدام، والسيدة فسبرمن من «المعهد المحلي لشؤون المدارس ووسائل الإعلام» (LISUM) برلين، والسيدة بولند في أرشيف منطقة نهري الأودَر والشبريه، والسيدة فاجنر في الأرشيف الاتحادي، والسيدة كاندلر في أرشيف محافظة براندنبورج، والسيدة الدكتورة شرول في أرشيف مدينة برلين، والسيد ياجيلسكي في معهد التاريخ اليهودي في وارسو، ولأرشيف مصنفات الأبنية في كوبنيك.
أخص بشكري للمساعدة في البحث والتحفيز وتقديم المشورة وللإجابة عن أسئلة كثيرة: د. فايسلدر، أندرياس بيتر، إلن يانينجز، كريستل نويبلت مينتسلاف، إليزابت إنجل، ساشا لِفين، جوتليب كاشوبه، إرمجارد فيشر، بوتو أوبرمن، مارجا توماس، برند وأنجِلا أندرِس، برند أندرِس الابن، يوتا دوريس أندرِس، السيد والسيدة بِنكه، راينر فاجنر، ماريون فلش، أسرة مولر-هوشكِه، د. فابر، كارلا مينداخ، السيد مينداخ، راينهارت كيزفيتر، هانس و. فينكه، السيد هيرفورت، ينس نستفوجل، فرانك لِمكه، د. تساومزايل، السيد تورتسينسكي، د. ألكسندر، كلاوس فسل، ديرك إرْبِنبِك، أنكِه أوتِّن، إليزا بورج، السيدة إردمن، روديجر وزيجريد جالون، إضافة إلى والدي ووالدتي.
وأتوجه بشكري إلى فولفجانج لاستماعه إلى أسئلتي الكثيرة التي ما كان من الممكن أن أطرحها إلا على نفسي، ولصبره اللامحدود.

المؤلفة

لجني إربِنبِك أعمالٌ أدبية عديدة، وهي تعَدُّ الروائية الأهم في الأدب الألماني المعاصر. تُرجمت أعمالها إلى ٣٠ لغة، وفازت عنها بأكثر من ٢٠ جائزة دولية، مثل جائزة توماس مان (ألمانيا) و«بريميو ستريجا» (إيطاليا).

ولدت جني إربِنبِك في برلين الشرقية عام ١٩٦٧. وهي ابنة الفيزيائي والفيلسوف والكاتب جون إربِنبِك والمترجمة دوريس كيلياس، التي ترجمت أعمال نجيب محفوظ وإبراهيم أصلان وبهاء طاهر وجمال الغيطاني ومحمد شكري وآخرين إلى الألمانية. جداها هما الأديبان فريتس إربِنبِك وهدا تسنر. تعيش إربِنبِك في برلين.

المترجم

نبيل الحفار مترجمٌ وناقد مسرحي سوري، ولد في دمشق عام ١٩٤٥. درس الأدب واللغة الألمانية في جامعة لايبزيج، ونال درجة الدكتوراه في العلوم المسرحية في جامعة هومبولت، برلين. كتب مقالات عديدة في النقد المسرحي في صحف ومجلات عربية، وألف مع د. حنان المالكي كتاب «غوته وهوغو وحوار الحضارات» عام ٢٠٠٩.

ترجم قصصًا ومقالات أدبية، وما يزيد على ٣٦ رواية و٣٤ مسرحية، لكبار الأدباء الناطقين بالألمانية، ومنهم: باتريك زوسكيند، روبرت شنايدر، هرتا مولر، إلفريده يلينك، فرانتس كافكا، برنهارد شلينك، زيغفريد لنتس، هاينريش بُل، روبرت فالزر، آنّا زيغرز، لوكاس بيرفوس، برتولد برشت، غوته وبوغدانوف، الأخوان غريم.

نال جوائز عديدة، منها جائزة النقد المسرحي (٢٠٠٧)، وجائزة الدولة التقديرية للترجمة والمسرح (٢٠١٤) في سوريا، وجائزة الأخوين غريم للترجمة (١٩٨٢)، وجائزة معهد غوته للترجمة (٢٠١٠) في ألمانيا، وجائزة الشيخ حمد للترجمة (قطر، ٢٠١٨).

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.
٢. سالباتييرَّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.
٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.
٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.
٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.
١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.
١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.
١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانس فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.
١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.
١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
١٧. اعتراف منتصف الليل - جورج دوهاميل. ترجمها عن الفرنسية: شكري محمد عياد.
١٨. الأمريكي الهادئ - جراهام جرين. ترجمها عن الإنجليزية: شوقي جلال ومحمود ماجد.
١٩. الأمير الصغير - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.

٢٠. أربطة - دومينيكو ستارنونه. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٢١. مليون نافذة - جيرالد مُرْنين. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٢٢. البحيرة السوداء - هيلا هاسه. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.
٢٣. حلم - أرتور شنيتسلر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٢٤. حرائق صغيرة في كل مكان - سيليسْت إنْج. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٢٥. مذكرات شرلوك هولمز - آرثر كونان دويل. ترجمها عن الإنجليزية: أمين سلامة.
٢٦. كتاب المقبرة - نيل جايمان. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٢٧. نحن نعرف ما سيأتي - كريستا فولف. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.
٢٨. ظلام مرئي: مذكرات الجنون - وليام ستايرون. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٢٩. المنزل الريفي (هواردز إند) - إ. م. فورستر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.
٣٠. اعتراف - ليف تولستوي. ترجمها عن الروسية: الأرشمندريت أنطونيوس بشير.
٣١. جسور مقاطعة ماديسون - روبرت جيمس والر. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.
٣٢. الحرب والتربنتين - ستيفان هيرتمانس. ترجمتها عن الهولندية الفلامندية: أمينة عابد.
٣٣. سولاريس - ستانيسواف لَم. ترجمها عن البولندية: هاتف جنابي.
٣٤. الاعتذار - إيف إنسلر. ترجمته عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٥. شخص نعرفه - شاري لابينا. ترجمتها عن الإنجليزية: منى عبد الغني.
٣٦. خلف هذه الأبواب - روث وير. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٣٧. احتضان - كلير كيجن. ترجمها عن الإنجليزية: أنور الشامي.
٣٨. اترك العالم خلفك - رمان عَلم. ترجمتها عن الإنجليزية: سها السباعي.
٣٩. بندقية صيد - ياسوشي إينويه. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.
٤٠. لن نقدم القهوة لسبينوزا - آليتشه كابالي. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤١. سأبقى هنا - ماركو بالزانو. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.
٤٢. نادي القتال - تشاك بولانيك. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٣. ديرمافوريا - كريج كليفنجر. ترجمها عن الإنجليزية: أحمد خالد توفيق.
٤٤. المولود من ذي قبل - خوان خوسيه ساير. ترجمها عن الإسبانية: محمد الفولي.
٤٥. ثلاثية - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٤٦. ملحمة أنيت - أنّه فيبر. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٤٧. الفجيعة - جني إربنبك. ترجمها عن الألمانية: نبيل الحفار.
٤٨. الواقعون - كارلوس مانويل ألباريس. ترجمها عن الإسبانية: أحمد محسن.
٤٩. مسيو إبراهيم وزهور القرآن - إريك-إيمانويل شميت. ترجمها عن الفرنسية: محمد سلماوي.
٥٠. جمعية جيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطس - ماري آن شيفر وآني باروز. ترجمتها عن الإنجليزية: إيناس التركي.
٥١. سدهارتا: قصيدة هندية - هرمان هسه. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.
٥٢. محادثة ليلية - ساشا ناسبيني. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

هوامش

(١): اسم عائلة، وكانت الكلمة تعني منصب «العمدة» في القرون الوسطى. (المترجم).
(٢): تربة سمراء تنشأ من تحلل المواد النباتية والحيوانية. (المترجم).
(٣): ماركة خزف فني ألمانية قديمة ذات شهرة عالمية وقيمة كبيرة. (المترجم).
(٤): وزير الإعمار والتسليح في العهد النازي. (المترجم).
(٥): غرفة لتبديل الملابس، كابينة. (المترجم).
(٦): التحية النازية المتبادلة في مرحلة ألمانيا الهتلرية. (المترجم).
(٧): رمز مستعارمن الجيش الإنجليزي يدل على أن حامل الجواز غير صالح للخدمة أو كائن أقل قيمة. (المترجم).
(٨): لعبة ورق ألمانيةلثلاثة أشخاص، ذات رسومات خاصة. (المترجم).
(٩): تلاعب لفظي على«ميلونن» أي «بطيخات»، و«مليونن» أي «ملايين». (المترجم).
(١٠): لوح معدني له شكل ديك، يتحرك مع الريح ليدل على اتجاهها. (المترجم).
(١١): حملة جمع الصوف من السكان لإعادة تصنيعه وتوزيعهمن ثَمَّ على الجيش النازي. (المترجم).
(١٢): أسماء شوارع في مدينة وارسو في أثناء الاحتلال النازي لبولونيا. (المترجم).
(١٣): تُضفر الضفيرتان من نهايتيهما معًا فتبدوان كحبل أرجوحة مندون مقعد. (المترجم).
(١٤): نوع من توت السياج، يُصنع منه العصير والمربى. (المترجم).
(١٥): مجموعة بحيرات متصلة ببعضها تقع شمالي وارسو في بولونيا اليوم. (المترجم).
(١٦): منطقة جبلية عالية جدًّا بين جنوبَي بولونيا وشمالي تشيكيا، تعد محمية طبيعية تحت إشراف اليونسكو، وهي مهد عدد كبير من الحكايات الشعبية. (المترجم).
(١٧): أسلوب فني في الأزياء والملابس ساد أوروبافي النصف الأول من القرن التاسع عشر. (المترجم).
(١٨): عيدرسمي اعتمدته دولة ألمانيا الشرقية بدل عيد العماد الكنسي. (المترجم).